

السنة الثانية ١٤٠٢ هـ صفر - العدد (١١)

دعوة الحق
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي





تأليف

الدكتور عبد الحميد محمد الهاشمي



بسم الله الرحمن الرحيم

قال رب العزة والجلال :

« وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلاَ تُبْصِرُون »

الذاريات : ٢١

× × ×

« الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ » .

السجدة : ٧ ـ ٩



مقـــــــــدمة

إن صلتي بموضوع هذا الكتاب بدأت منذ أكثر من عشرين عاماً . إذ كان بعضه نواة لأحاديث إذاعية أو ندوات متلفزة .

ثم إن هذه الصلة أصبحت أكثر عمقاً وتركيزاً حين قرر قسم علم النفس في دراساته العليا في جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة (أم القرى حالياً) ، تقديم مادة (الدراسات النفسية عند المسلمين) للدارسين فيه .

وكان لي شرف القيام بتدريسها ، غير أنه تبين أن هذه المادة واسعة لأنها تضم ثلاثة جوانب في كل من (القرآن) و (السنة) و (لدى العلماء المسلمين) لذا قسمت المادة تبعاً لذلك ، ولقد وضعت في الدراسة النفسية التربوية للحياة النبوية كتابي (الرسول العربي المربي) .

ثم هذا الكتاب الذي أقدمه اليوم (لمحات نفسية في القرآن الكريم) .

وإن علم النفس ليفخر حين نجد أن القرآن الكريم على الرغم من أنه (كتاب هداية وتشريع) . قد تعرض إلى غير قليل من المواقف الدقيقة والمعجزة في تشريح النفس الإنسانية وما فيها من مواطن القوة والضعف ودوافعها . كما أنه يرشد إلى طرائق التربية النفسية الصحية . ولا عجب فالقرآن ــ يخاطب الإنسان ــ والنفس هي جوهر الشخصية الإنسانية . والله تعالى منزل القرآن هو خالق

الإنسان ، وهو العليم بمن خلق تكويناً ورعاية وتقويماً ، وهذا ما يلقي على العلماء النفسيين مسئولية كبرى في البحث والدراسة لاكتشاف مزيد مما وهب الله هذا الإنسان من قدرات ودوافع وأن تتجه البحوث هادفة لخير النفس الإنسانية .

« وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ » . (١)

فالقرآن يدعو الإنسان للنظر بحثاً وفهماً وإفادة في الأرض عماراً وفي النفس صلاحاً .

ـ وأنها لحكمة كبرى حين يقرن القرآن تلازماً مشاهد الأرض مع النفس الإنسانية .

فالأرض مليئة بكنوز الخامات والطاقات ـ وهي آية في الدقة الإلهية ثم هي مستقر أمن لحياة الإنسان ـ الذي على الرغم من صغر حجمه فهو خليفة الله في الأرض وهو آية في التكوين النفسي . . وفي إطلاق إسم (آيات) على كل من مشاهد الأرض والكون . وعلى (النفس) وعلى الفواصل المقطعية في القرآن تأكيداً لمبدأ كرامة الإنسان ودعوته إلى الإيمان بالله واحداً معبوداً :

« سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِم ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد » (٢) .

ـ وإنه لاتجاه عملي للفكر الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري مع الصحوة المعاصرة أن تنشط البحوث العلمية

---

١ ـ سورة الذاريات الآية (٢٠ـ٢١) ٢ ـ سورة فصلت الآية (٥٣)

في الدراسات النفسية من مفهوم إسلامي متحرر من رواسب فرضيات أو نظريات مادية جدلية أعاقت التقدم السليم لعلم النفس الحديث .

وهذا البحث إنما هو إسهـــام علمي في هذه الصحوة – وأنني لم أقدم فيه كل ما يتصل بالموضوع . إذ اكتفيت بعرض الإطار العام لمجال علم النفس في القرآن مع بداية السير خطوات في الطريق

وإنني لأشكر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة التي تشجع أمثال هذا البحث العلمي . راجياً من الله تعالى التوفيق فهو السميع القريب المجيب .

د. عبد الحميد محمد الهاشمي

الفصل الأول
تمهيد أساسي

- البحث ومناهجه
- الدراسات النفسية
- أهداف علم النفس
- القرآن المجيد
- محمد رسول الله
- نزول القرآن مفرقاً
- مضمون القرآن
- خلود القرآن
- الكون والنفس هبة إلهية . . . ولكن
- القرآن والدراسة النفسية
- معجزات قرآنية نفسية

● البحث ومناهجه :

لا بد لفائدة القارئ والباحث أن يكون بين يديهما في البداية بيان لحدود موضوع البحث ومناهجه ليكون تصورهما واضحاً لديهما للكتاب .

وفي ما يلي هذا المنطلق .

أولاً ــ القرآن أولاً وأخيراً :

إن الباحث في القرآن الكريم ليس له أن يواجه نصوصه بمبادئ نفسية أو علمية في موضوع تلك الآيات . ذلك لأن المبادئ

النفسية في عمومها لا تزال خاضعة للتجريب والملاحظة فهي نسبية الصحة . أما القرآن الكريم فهو المصدر اليقيني الصادق . ثم كم من نظريات علمية كانت قبل قرن (حقائق) ثم غدت اليوم تمثل خطوة بدائية في سلم الفكر العلمي الصاعد . أما القرآن فهو الكتاب الخالد الذي جعله الله هداية للإنسان ما بقي في تكوينه العام من لحم ودم وعصب وحواس وروح ونفس وعقل . .

ثانياً ـ قرآن عربي مبين :

حرص الباحث أن يلتزم بالنص القرآني في دراسته النفسية والاكتفاء بالمدلول اللغوي في العربية مع البعد عما روته بعض كتب التفاسير من أخبار ليس لها سند موثوق وإنما هي غرائب روايات من القصاصين لإثارة السامعين . فيكفي الباحث الوقوف عند النص القرآني في دلالته العربية الواضحة . وتلك إحدى مميزات القرآن الكبرى كما وصفه الله بها للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » . (1)

ثالثاً ـ الله أعلم بمن خلق :

القرآن كتاب الله الخالد والله هو الخالق للإنسان وقد جعل له هذا القرآن هداية ونوراً . والنفس هي جوهر الإنسان وبها كان الكائن الذكي المسئول والخليفة المكرم . .

ولما كان صانع الآلة (كالسيارة أو الهاتف) هو أعلم الناس بهيكل تركيبها وعوامل السلامة والخراب فيها على الرغم من أن صانع السيارة لم يخلق موادها الأولية من حديد أو نحاس أو خشب ..

---

١ ـ سورة الشعراء الآيات (١٩٣ـ١٩٥) .

فإن الله هو الخالق للإنسان أصلاً وتكويناً لهو الأعلم بتكوين النفس ومواطن القوة والضعف وعوامل الإصلاح والفساد فيها — ولذلك أنزل القرآن لهذا الإنسان هداية وتوجيهاً .

ولقد اتخذ القرآن من مواجهة الإنسان بحقائق متعددة من تشريح نفسه إحدى الطرائق الفطرية الإدراكية الموصلة إلى الله تعالى إيماناً وعبادة وشكراً مثل :

« وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ والأبْصَارَ و الأفْئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون » . (١)

والآية :

« وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزواجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُون » . (٢)

رابعاً — زاوية نفسية تخصصية :

لقد أفادتني كتب التفسير في الفهم العام غير أن هذا البحث ليس (كتاب تفسير) بالمفهوم المحدد . . وإنما هو دراسة نفسية مقصورة لبعض (المعلومات) و (المواقف) و (النماذج السلوكية) للنفس الإنسانية دافعية وانفعالا وسلوكاً . مما عرض له القرآن الكريم في عواطف الإيمان والكفر والخير والشر .

---

١ — سورة النحل الآية ٧٨
٢ — سورة النحل الآية ٧٢

نعم إن كثيراً من المصطلحات النفسية هي حديثة الاستخدام علمياً بيد أن مفهومها النفسي أقدم من ذلك بكثير في معارف الإنسان لأنها جزء أساسي في تكوينه النفسي في حياته الشعورية الواعية .

فهذا البحث دراسة علمية نفسية لبعض ما في القرآن الكريم من مواقف ونماذج وهي دراسة انتقائية لأنها تمثل غيرها في العوامل والخصائص النفسية العامة المشتركة . إذ أن أكثر سور القرآن الكريم فيها قبس من تلك المعلومات النفسية القيمة .

● **الدراســـات النفسـية :**

إن المعلومات التي تندرج فيما سمي فيما بعد (علم النفس) هي أفكار تكون من أقدم المحاولات النفسية التي مارسها الإنسان منذ أيامه الأولى على وجه هذا الكوكب الأرضي بما أودع الله في هذا الإنسان من ذكاء يدرك بعض ما يعتريه وما يدور حوله ويشعر به من هذا وذاك ــ فلقد حاول أن يفهم نفسه وما تحس به من فرح أو حزن ومن رضا أو غضب . ومن محبة أو حقد . ثم يتعلم وينسى وحين ينتبه أو يكون شارد الذهن ،كما حاول الإنسان أن يفهم صغيره الطفل الناشيء حين يألف الآخرين أو ينفر منهم إلى غير ذلك من إحساس وإدراك وانفعال واستجابة وسلوك .

وعلى الرغم من أن هذه المعلومات النفسية قديمة فإن (علم النفس) حديث نسبياً ــ حديث ببعض مفاهيمه الجديدة وفي استخدامه لبعض المناهج التي تحـــاول أن تكون (موضوعيه) في الدقة والتقنين والتجريب . وهو يسعى جاهداً أن يبلور مجاله

الواسع وأن يعيد النظر في افتراضات سادت ثم بادت وهو في الوقت نفسه يسعى للكشف عن مزيد من العمليات النفسية والانفعالية التي تتميز بها النفس الإنسانية .

ومن الجدير بالإشارة أن غير قليل مما يندرج في مجال الدراسات النفسية الحديثة قد سماه الإمام حجة الإسلام (بعلم المعاملة)(١) .

وهو ما يعنيه تقريباً علم النفس (بالسلوك أو علم السلوك) .

بيد أن (علم النفس) مع جهوده العلمية وبعض انجازاته الصائبة يؤكد بكل صراحة علمية أنه لا يزال في أول الطريق لفهم النفس الإنسانية في شتى أبعادها الإدراكية والانفعالية والسلوكية الاجتماعية ـ وأن أمامه الكثير ليلاحظ ويدرس ويكشف ويختبر ويطبق . فكم ترك الأول للآخر .

وفي ضوء التطور الطويل الذي سجله تاريخ مجال (علم النفس) في تجديد مفهومه ومناهج بحثه فإننا نستطيع أن نقدم التصور الشامل والبسيط لمفهوم (علم النفس) كما يلي :

(هو مجموعة من الملاحظات والمباديء والتوجيهات التي تحاول فهم النفس الإنسانية في مجال حياة الإنسان الشعورية واللاشعورية في إدراكه وانفعاله وسلوكه في نمو نفسي متفاعل من بدء الحياة إلى ختامها).

وهذه الدراسات النفسية تحاول أن تعتمد على الطريقة العلمية المعروفة والتي تناسب مجال (الحياة الإنسانية) في :

---

١ ـ الغزالي : الامام أبو حامد الغزالي حجة الاسلام (احياء علوم الدين ج ١ ـ دار المعرفة ـ بيروت · (د·ت) ص (٣) ، (١٩)

(أ) دقة الملاحظة الذاتية والموضوعية مقصورة أو غير مقصورة .

(ب) إجراء نوع من الاختبارات والتجريب في حدود المتغيرات الإنسانية المعقدة .

(جـ) في دقة الوصف وصحة التحليل والتصنيف .

(د) ثم في صياغة التعميمات والأحكام .

(هـ) وأخيراً في محاولة التطبيق لبيان مدى صحة الأحكام تمهيداً لمعرفة مبدأ أو قانون نفسي .

● **أهـداف عـلم النفس :**

ليست الدراسات النفسية ترفاً علمياً يسعى لإشباع فضول ذهني نظري – بل هي دراسات تهدف من وراء استخدام شتى المناهج العلمية الممكنة في مجال العلوم الإنسانية للوصول إلى الأهداف النظرية والعلمية والتطبيقية متفاعلة فيما بينها كما يلي :

أولاً : محاولة الفهم العلمي :

للوصول قدر الإمكان لفهم النشاط النفسي للكائن الحي في كشف دوافعه – وطرائق إشباعها مع ما يصاحب ذلك من عمليات عقلية – وانفعالات وجدانية وأنماط سلوكية كما هي في الواقع العملي .

ثانياً ـ امكانية التنبؤ النسبي :

القدرة على التنبوء بالسلوك القادم لهذا الفرد الإنساني أو ذاك إذا كان في موقف تعرف فيه الدوافع وما يتصل بها من إدراك ووجدان ونزوع ، والتنبوء في مجال الدراسات النفسية هو ترجيح أحد الاحتمالات بدرجات متفاوتة من التنبوء النسبي مع عدم

إغفال الاحتمالات الأخرى في مدى المبدأ النفسي الأكيد وهو مراعاة (الفروق الفردية) في الحياة النفسية للإنسان .

ثالثاً ـ تطبيقات عملية :

هدف تطبيقي عملي في الاستفادة الممكنة من الفهم النسبي لبعض عمليات ومباديء الحياة النفسية للإنسان ـ ولقد نشأت من الاتجاه الهادف في الميادين التطبيقية لعلم النفس فروع كثيرة تأخذ اسم مجالها العملي في ميد ان (الاجتماع) و (التربية والتعليم) و (المجهود العسكري الحربي) و (الأدب) و (الصناعة والمهن) و (الإدارة) ومجال (الأمن والجنايات) و (إنحراف الأحداث) و (الطب النفسي وقاية وعلاجاً) وغير ذلك أيضاً .

رابعاً ـ انضباط ذاتي في تكوين (الضمير) :

يسعى علم النفس الحديث في تصوره الإسلامي في نطاق الاتجاه التطبيقي للدراسات النفسية إلى الاستفادة الذاتية من دراسة النفس الإنسانية . لأن الإنسان يحاول دراسة غيره من الناس ناظراً لنفسه بعين الكمال ـ فالدراسة النفسية الموجهة تقدم للإنسان نفسه كما هي ليعرفها في مواطن القوة والضعف ومنابع الأمن والخوف ليكون على صلة دائمة بالمصدر الأول للقوة والأمن إيماناً بالله تعالى واحداً معبوداً إشباعاً للدافع الفطري الإيماني في تكوين (الضمير) ضبطاً للدوافع إشباعاً وإعتدالا سليماً . ومراقبة السلوك صحة واستقامة وفي علاقات الإنسان بغيره خلقاً ونبلاً ـ وهذه غاية الغايات للدراسات النفسية للإنسان .

● **القرآن المجيد :**

القرآن كتاب الله الخالد أنزله وحياً على الرسول العربي الأمين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . وهو كتاب هداية

في تربية الإنسان فرداً وجماعات وأجيالا ما دام الإنسان حياً على وجه الأرض . والإنسان المؤمن يعيش مع القرآن حياته . فهو غذاؤه التربوي المتجدد مرات كل يوم وليلة ليجد فيه المؤمن صلته بالله خالقه سمواً وأماناً وعبادة .

والإنسان مع هذا السمو القرآني يظل يمشي على الأرض يستمد منه تربية عملية مستمرة في حثه على التعلم والمعرفة ، وفي العمل والإنتاج وفي السلوك والعلاقات مع غيره تعاوناً وعمراناً وخلافة في الأرض وحياة — ولقد استمر نزول القرآن حسب الحاجة والمناسبات مدة ثلاث وعشرين سنة من بدء البعثة النبوية قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى سنة ١٠ هـ .

ولقد أنزله الله بلسان عربي مبين فكان ذلك تكريماً للغة العربية التي غدت لغة العبادة الإسلامية — واللغة العالمية لدى الشعوب الإسلامية . وكان ذلك تشريفاً للعرب إذ كانوا أكثرية الجيل الأول من حملة الرسالة الإسلامية وكانت الجزيرة العربية مركز إشعاع لشعوب الإنسانية .

وللقرآن الكريم عدة أسماء يمثل كل واحد منها صفة خاصة من صفاته الرئيسية المهمة فهو (القرآن) لأنه مقروء آناء الليل وأطراف النهار (وهو الكتاب) مكتوب محفوظ وهو (الذكر) يذكر الإنسان بكل خير وهو (هدى) و (نور) و (موعظة) وغيرها . . إنه القرآن .

« تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيم . كتَابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قُرآناً عَرَبياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُون »(١) .

١ — سورة فصلت الآية ٢ ، ٣

● **محمـد رسـول الله :**

نزل القرآن وحياً من الله تعالى على الرسول العربي الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس أجمعين .

« وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العالمين . نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمينُ . على قَلْبِكَ لِتَكونَ مِنَ المُنْذِرينَ بِلِسَانٍ عربيٍّ مُبِين »(١) .

وفي شخصية كل رسول ومنهم رسولنا الكريم جانبان أساسيان متفاعلان ومتلازمان وهما : (إنسان بشر يوحى إليه) **كما يلي :**

(أ) الجانب الإنساني فرسول الإسلام بشر(٢) بكل معاني البشرية : ولد وأكل وشرب وعاش طفلا وشاباً وتاجراً وتزوج وأصابه المرض والصحة والتعب والراحة ـ فهو إنسان تام الإنسانية ليس جزءاً من الله ولا ظلاله ، والقرآن يؤكد عدة مرات هذا الجانب البشري للرسول الكريم وذلك لحكمة نفسية تربوية كبرى لأن مجرد وجود المباديء الصالحة في كتاب لا يحرك في الإنسان العوامل القوية للعمل والتطبيق . ولكن الإنسان نفسه حين يرى النموذج الإنساني الماثل بين يديه يعيش القرآن ويطبقه على نفسه . فإن عوامل القدوة والتقليد والامتثال العملي والواجهة السلوكية تكون في أشد مستواها قوة وقناعة وسلوكاً . . لذا (محمـد رسول الله) هو المثل الإنساني الأكمل للإسلام العملي . .

(ب) الجانب النبوي الرسولي الذي يتلقى الوحي من الله . فمحمد إنسان إختاره الله ليوحي إليه هذا القرآن وهو مبلغ

١ ـ سورة الشعراء الآيات ١٩٢ـ١٩٥

٢ ـ الهاشمي : د. عبد الحميد (الرسول العربي المربي) ص ٦٦

لرسالة الله . . نعم إن الرسول ليس مجرد آلة صماء ناقلة لا تعي . . إنه صادق قولا وعملا – وإنه أمين في أداء الحقوق وحفظها وإنه الذكي الفطين في شمول الفهم وقوته . وإنه المبلغ لرسالة الله بكل أمانة وتطبيق .

وفي أكثر من آية قرآنية يجمع الله في كل واحدة منها هذين الجانبين الرئيسيين في شخصية (محمد رسول الله) .

« قُلْ إنمَا أنا بَشَرٌ مِثْلُكم يُوحَى إلىَّ أنمَا إلهُكم إلهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحَداً »(١) .

● **حكم نفسية لنزول القرآن مفرقا :**

نزل القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم مفرقاً في فترات طويلة امتدت إلى ما يقرب من ربع قرن وذلك لحكم شتى نفسية وتربوية واجتماعية وتشريعية هي نتيجة نزوله منجماً في تؤده وترسل أهمها :

١ – تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وتجديد عزيمته في الدعوة بين فترة وأخرى – لمواجهة مصاعب وعناد المشركين وأذاهم .

وكذلك تثبيت قلوب المؤمنين الأولين وأكثرهم من الضعفاء والفقراء إذ يشعرون بأن الله معهم ويؤيدهم . ولهذا التثبيت الإلهي للرسول أشار القرآن :

---

١ – سورة الكهف الآية ١١٠

« وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً واحِدةً . كَذلكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاه تَرتيلاً »(١).

٢ ـ سهولة الفهم والاستيعاب على المؤمنين . وسهولة الحفظ على الحفاظ وسهولة متابعة الكتابة لدى الوحي وهذه وظائف نبوية تربوية كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم بها تعليماً وتربية وإشرافاً . .

« وَقُرْآناً فَرقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلى النّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزّلْنَاهُ تَنْزِيلاً »(٢) .

٣ ـ علاج المواقف السلوكية الجارية في الحياة العملية وإجابة لأسئلة مطروحة ـ وأحكاماً تشريعية لحوادث قائمة . . فالقرآن يقوم بتربية جيل نموذجي من الصحابة رجالا ونساء في حياتهم العملية فيما يناسب كل حادثة أو موقف ولنظائرها المتجددة مع الناس . .

« وَنَزّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى للمُسْلمين »(٣) .

٤ ـ حكم تربوية في مبدأ التدرج في التربية القرآنية حيث نجد أن أكثر القرآن الذي نزل في مكة المكرمة قبل الهجرة كان يتصل بالدعوة العقيدة المسلمة أولا، لأنها الأسس الوطيدة بينما نجد أن تشريع العبادات وهي نتيجة العقيدة السليمة قد تأخر

---

١ ـ سورة الفرقان الآية ٣٢
٢ ـ سورة الاسراء الآية ١٠٦
٣ ـ سورة النحل الآية ٨٩

أكثرها – إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة المنورة – ولئن كانت الصلاة قبل الهجرة . فإن الصوم ثم الزكاة كانا في السنة الثانية بعد الهجرة . أما الحج ففي السنة السادسة .

كما نجد الحكمة التربوية أكثر وضوحاً في التدرج التشريعي في تغيير بعض العادات السائدة الفاسدة – كتشريع حرمة الخمر الذي استمر سنوات والذي سيتم شرحه في ختام هذا الفصل .

● **مضمون القرآن :**

القرآن الكريم كتاب توجيه للإنسان في مختلف جوانب تكوينه ومجالات حياته العملية . وبدراسة تفصيلية تحليلية نستطيع أن نصنف ما اشتمل عليه في مضامين أشبه بمحاور رئيسية كبرى وهي :

١ – الدعوة القوية و المتجددة (للعقيدة الإسلامية) إيماناً بالله ورسله ورسوله الخاتم وبقية أركان العقيدة بالملائكة والكتب واليوم الآخر والبعث وما فيه . .

٢ – العبادات باعتبارها مظهراً رئيسياً للإيمان وذات صلة مباشرة بالله تعالى مع ما فيها من نتائج سلوكية في حياة الفرد والجماعة.

٣ – تنظيمات تشريعية لحياة المسلم – في البيع والتجارة والاشهاد والميراث – والزواج والحدود – مما ينظم علاقات الناس بعضهم مع بعض في معاملات . .

٤ – قيم أخلاقية ومباديء سلوكية في حياة الإنسان مثل الدعوة : للإحسان والصبر – والشكر والرحمة واللين – وكظم الغيظ والعفو عن الناس – وتمتاز هذه القيم الأخلاقية القرآنية

بأنها ذات صلة كبرى مع العقيدة المتصلة بالله الذي يعلم ما في الأنفس والعقول(١) .

٥ ـ قصص ومواقف نفسية تربوية لتكون موعظة وعبرة من حياة الأمم السابقة ـ وأن الكفر لا ينفع دنيا ولا آخرة . وأن الشر النفسي عاقبته وخيمة .

٦ ـ توجيه الإنسان إلى النظر في الكون وما يحتويه . وما فيه من مسخرات ـ وإلى النفس وما فيها من طاقات وصفات ليكون هذا وذاك دليلاً على قدرة الله الخالق المستحق وحده للإيمان به وعبادته .

● **خـــلود القـــرآن :**

إنها لحكمة قرآنية في رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أن معجزات الرسل السابقين الدالة على صحة رسالتهم الإلهية وصدقها كانت أشياء مادية محسوسة خارقة للعادة يدركها نفر من الناس عاشوا أحداثها رؤية مباشرة ثم تنقضي مع زمانها . ثم إن تلك المعجزات كانت لا تدخل في جوهر الرسالة ومضمونها .

فمعجزات موسى (عليه السلام) غير الكتاب الذي أنزل عليه (التوراة) كانت إنقلاب العصا إلى حية تسعى . وانفجار الينابيع بعصاه . كذلك معجزات عيسى (عليه السلام) غير الذي أوحي إليه (الإنجيل) مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى بينما نجد (محمداً رسول الله) وله معجزات كثيرة فإن المعجزة الكبرى هي (القرآن ذاته) وهو موجود

---

١ ـ بيصار : د. محمد (العقيدة والاخلاق) وأثرهما في الفرد والمجتمع ـ ص ١٥٣

في كل مكان وزمان ومع كل جيل من الإنسانية تراه وتسمعه وتقرأه وتكتبه وتعمل به وصدق الله العظيم :

« إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنّا لَهُ لحَافِظُون »(١) .

فخلود القرآن نتيجة لحفظ الله تعالى له – وهذا الخلود ينبثق من الحقائق التالية :

الأولى : وسائل عملية ضمنت الحفظ الخالد ومن تلك الوسائل .

١ – إشراف الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه على كتابة الوحي وقد أعانه على ذلك نزول الوحي منجماً أكثر من عشرين سنة وكان للرسول صلى الله عليه وسلم عشرات من كتّاب الوحي الأمناء من الشباب والشيوخ . . أما الكتب السماوية الأخرى فلم تدون في حياة رسلها – وإنما جمعت بعض أجزائها أو روايات شارحة لها بعد أجيال من الناس ولذلك تداخلت عوامل النسيان والتحريف المتعمد ولذلك تعددت واختلفت .

٢ – الحفظ عن ظهر قلب . فلقد أقبل عدد غير قليل من الصحابة على حفظ القرآن بعضه أو كله من الأطفال الراشدين واستمر هذا الحفظ أجيالا وأجيالا . . فإذا بك اليوم تجد في العالم الإسلامي ملايين من الحفاظ للقرآن الكريم على الرغم من أن عددا غير قليل لا يعتبر اللغة العربية لغة شائعة بين أهله وفي بلاده .

٣ – التسجيل الصوتي للقرآن كاملاً وهذه إحدى علامات خلود القرآن فالآن لدى العالم الإسلامي عدة إذاعات خاصة بالقرآن الكريم المسجل التي تنشر القرآن أكثر ساعات اليوم ليصل صوته عبر موجات الأثير لأطراف الأرض قرآناً واحداً .

---

١ – سورة الحجر الآية ٩

٤ ـ الطباعة السنوية لملايين النسخ من القرآن ومع ترجمة لمعانيه إلى كل اللغات الإنسانية المعاصرة .

الحقيقة الثانية في خلود القرآن :

ما تضمنه القرآن من حقائق ثابتة فطرية في النفس الإنسانية من ميول الفطرة إلى الإيمان بالله بعد مشاهدة الكون ونظامه وإلى جانب ما قدم من وسائل لتربية الإنسان .

فالجوهر الإنساني واحد وثابت و هو يتطور متغيراً وفي وحدة إنسانية تتم داخل الإطار الإنساني فتقرأ اليوم في القرآن مواقف الحقد والغيرة ومواقف الإيمان والصلاح . . وكأنها مواقف معاصرة تجري مع أحداث الإنسان المعاصر وما يتعلق بها من تنظيم عام في الإرث والزواج والحدود والعقوبات .

الحقيقة الثالثـة :

ما تضمنه القرآن من تشريع أساسي في الحياة الإنسانية ، نعم إن العقيدة واضحة الحدود والعبادة مقيدة الأداء لأنهما يتصلان بالتكوين العام الدائم للإنسان . أما ما يتصل بالحياة المتجددة والمتطورة فقد حدد القرآن الأسس العامة التي تنير الطريق وتحدد مساره كما يلي :

(أ) في المعاملة والإجتماع ـ أقام مبدأ التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان .

(ب) في الحكم أقام مبدأ الشورى وتبادل النصيحة .

(جـ) وفي القضاء أقام مبدأ العدالة ولو كان مع ذي القربى .

(د) وفي حماية الأمة ـ مبدأ الإعداد لكل ما تستطيعه الأمة .

وكذلك الحال في مجال العلم والعمل . وغيرها مما يناسب كل زمان بشرط أن يكون العلم نافعاً والعمل صالحاً . مما ينظم الحياة المسلمة ويطورها .

الحقيقة الرابعـة :

وهذه حقيقة علمية فلقد وصلت العلوم في عصر الفضاء والذرة في القرن العشرين درجة لم تخطر على بال أحد العلماء الأجانب قبل مئة عام – ثم ها نحن اليوم حين نقرأ القرآن – وفي الآيات المتصلة بالكون بصفة عامة . . عن الشمس والقمر وحركتها مع الليل والنهار والأرض والرياح وأثرها في التلقيح . ووجود الزوجية في كل شيء من الكائنات الحية والنبات والجماد . عندما نقرأ هذه الحقائق العلمية وأمثالها في القرآن نحس أن القرآن في جدته وكأنه قد نزل اليوم على الرغم من أنه في قرنه الرابع عشر.. وسيبقى كذلك خالداً في جدته وظهور معجزاته لأن الذي أنزل القرآن هو الذي خلق الكون والإنسان . .

«كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »(١) .

● **الكون والنفس هبة الهية ولكن .. :**

إن الله تعالى خالق الإنسان قد كرّمه وجعله خليفة له في الأرض ليكون على صلة بالله عبادة وشكراً وقد وهبه أمرين اثنين للقيام بتلك الخلافة والأهلية .

وهاتان الهبتان الأوليان هما :

---

١ – سورة هود الآية ١ .

الهبة الأولى :

هي نفس الإنسان وما أودع الله فيها من قدرات ودوافع واستعدادات جعلته أهلا للتكريم وحسن التقويم وما فيه من ذكاء وقّاد وحواس نشطة ويد صنّاعة — ورغبة في البحث والإنتاج . فلقد اختاره الله ليكون خليفة في الأرض خلافة عمران وسلام وصلاح . .

« وَإِذْ قالَ رَبُّكَ للملائكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيفَةً »(١) .

الهبة الثانية :

تسخير الله للكون بما فيه من طاقات وسنن وخامات لخدمة الإنسان . .

« اللهُ الذي سَخّرَ لكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فيهِ بأمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلعَلّكُم تَشْكُرُون . وَسَخّرَ لكُم ما في السّموات وَما في الأرْضِ جميعاً مِنْهُ إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُون »(٢) .

والتسخير معناه الخدمة مجاناً دون أجر — إلا أن يحاول الإنسان فهم هذه المسخرات في البحث عنها وعن قوانينها بحثاً علمياً وكلما ازداد فهم الإنسان لهذه المسخرات الطبيعية الكونية ازداد انتفاعه بها . فالتسخير يزداد بازدياد العلم في آيات الله في الآفاق لنستطيع الانتفاع بالمسخرات تكنولوجياً تطبيقياً عملياً(٣) .

---

١ — سورة البقرة الآية ٣٠

٢ — سورة الجاثية الآيتان (١٢و١٣) .

٣ — سعيد : جودت (العمل قدرة وارادة) ص (٥٦،٥٧)

ولقد أحرز الإنسان تقدماً عجيباً في الاستفادة المادية من المسخرات في مجال الجماد والنبات والمادة عموماً - وإن كان ما يزال يجهله يفوق كثيراً ما عرفه واكتشفه واستفاده من هذه الهبة الإلهية في هذا الكون .

بينما الإنسان لا يزال قليل المعرفة بنفسه - وغير جدي في إستغلال المواهب الإلهية في تكوين نفسه وعواملها لتكون دافعة للإيمان والخير وعاملة للصلاح والسلام وهذه نتيجة جهل الإنسان بنفسه إلى جانب إهمال دوافع الخير فيها وسوء توجيه ميول الضعف فيها أيضاً ، وهذا جهل وسوء استخدام للهبة الإلهية في النفس الإنسانية لأن الإنسان قد احتقر نفسه وعمل على إفسادها. في ظلال تلك المدنية الصناعية التي اعتز بها وأنسته كرامة نفسه - وشرف إنسانيته .

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »(١) .

هذا الإختلال التوازني في تقدم الفكر الإنساني في الاستفادة من مسخرات الله المادية في الكون . مع عجز وجهل وأحياناً محاولة إفساد لمواهب النفس الإنسانية الخيرة ، وطمس دوافعها الروحية هو الذي جعل (إنسان) اليوم وهو يجتاز مرحلة سامية من التقدم العلمي المادي ذرة وفضاء - يجتاز في نفس المرحلة أسوأ مراحل القلق والإجرام والضياع الروحي والخلقي . .

---

١ - سورة الشمس الآيات (٧-١٠) .

ويشهد شاهد من أهل هذه المدنية الغربية(١) إذ يقول (وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التي سبقتها . أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة . وذلك لأسباب لا تزال غامضة . . إذ القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية : إننا ضحايا تأخرعلوم الحياة عن علوم الجماد)(٢) .

ثم يقـــول :

(فإن كل إنسان منصرف الآن إلى الاهتمام بالأشياء التي تزيد من ثروته وراحته بينما لا يوجد من يدرك أن الصفة البنائية والوظيفية والفعلية لكل فرد يجب أن تتناولها يد التحسين . فإن صحة العقل والحاسة الفعالة والنظام الأدبي والتطور الروحي تتساوى في أهميتها مع صحة الأبدان ومنع الأمراض المعدية)(٣) .

● القرآن والدراسة النفسية :

لندرك مكانة الدراسة النفسية في القرآن الكريم وأهميتها الخاصة علينا أن نقدمها ضمن الإطار العام التالي :

أولاً : أن القرآن الكريم ليس كتاب (علم النفس) كما أنه ليس كتاب علم (قضاء) أو (الكون) أو غير ذلك من العلوم .

---

١ ــ د. الكسيس كاربل : طبيب اشتهر بأبحاثه (بالقلب الميكانيكى) منح جائزة نوبل (١٩١٢م) لابحاثه فى وظائف الاعضاء ــ عاش متنقلا بين فرنسا والولايات المتحدة الامريكية .. له كتــاب : (الانسان ... ذلك المجهول) أشهر كتبه وله طبعات .

٢ ــ كاربل : د. الكسيس (الانسان .. ذلك المجهول) ص ٤٢

٣ ــ كاربل : د. الكسيس (الانسان .. ذلك المجهول) ص ٥٦

فليس للباحث أن يحمل الآيات القرآنية نظريات كونية أو نفسية إنه القرآن كتاب هداية لتربية الإنسان وإرشاد للإيمان بالله وعمل الصالحات :

« إنَّ هَـذَا القرآنَ يهْدِي للتي هيَ أقْوَم وَيُبَشِّرُ المؤْمنين الذينَ يعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ أجراً كبيراً »(١) .

ثانياً : بيد أن القرآن وهو كتاب الله خالق الكون ومدبره ومقدره في أحسن تقدير فلا تفاوت ولا اضطراب . فإن الله سبحانه وتعالى قد أورد في القرآن بعض الحقائق الكونية ليلفت نظر الإنسان إليها لتكون دليلاً موصلاً إلى الإيمانِ بالله تعالى : كما في الآيات التالية في سورة (يس) :

« سُبْحانَ الذي خَلَقَ الأزْوَاجَ كلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ وَمِنْ أنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُون » .

« وآيةٌ لهُم اللَّيْلُ نَسْلَخُ منهُ النَّهارَ فإذا هُم مُظْلمون » .

« وَالشَّمْسُ تجْري لِمُسْتَقَرٍّ لهَا ذلكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العَليم » .

« وَالقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنَازلَ حتّى عَادَ كالعُرْجُونِ القَدِيم » .

« لا الشَّمْسُ يَنْبغي لهَاَ أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ في فلكٍ يَسْبَحُون » (٢) .

---

١ ـ سورة الاسراء الآية ٩
٢ ـ سورة يس الآيات (٣٦ـ٤٠)

حيث نجد الإشارة صريحة إلى مبدأ الزوجية في الإنسان والنبات والحيوان وفي كل ذرة من ذرات الكون .

كما نجد الإشارة إلى (نقص الأكسجين) الضروري لسهولة التنفس الطبيعي للإنسان كلما ارتفع في أجواء الهواء كما في الآية :

« فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسْلامِ وَمَن يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ »(1) .

وكذلك الحقيقة العلمية في أهمية الرياح لتلقيح الأشجار المثمرة كما في قوله تعالى :

« وَأرْسَلْنَا الرِّياحَ لَوَاقِحَ فأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فأسْقَيْناكُمُوه وَما أنْتم لَهُ بخازِنين »(2) .

وغير ذلك من الإشارات الواضحة للدلالة على ما أنعم الله به على الإنسان ولتأكيد قدرة الله الذي هو رب العالمين وعلى الإنسان أن يخلص له العبادة .

ثالثاً : كذا فإن القرآن الكريم قد تعرض في كثير من المناسبات إلى مواجهة الإنسان بحقائق عن تكوينه النفسي ولا سيما ما كان خافياً من مكنونات نفسه وأسرار انفعالاتها . والله تعالى هو أعلم بالنفس إذ خلقها ورعاها .

---

١ – سورة الانعام الآية ١٢٥

٢ – سورة الحجر الآية ٢٢

هذا مثل :

سيارة تسير على الطريق أو طائرة تحلق بالأجواء فإن الناظر العابر مهما كان ذكياً فإن وصفه للسيارة والطائرة وصف ظاهري ثم يأتي مهندس التصليح فيكون فهمه لهما أكثر عمقاً لبعض أجزائهما ووظائفهما .

أما العالم الخبير المختص الذي صمم الآلة وأشرف على العمال في صناعتها فإنه أعمق فهماً وأصدق علماً . .

ذلك إنسان يصنع آلة مادتها من حديد ونحاس وغير ذلك من المعادن التي ليست من صنعه . كما أن عقله وذكاءه ليس من صنعه..بعد هذا المثل ولله المثل الأعلى :

فإن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان من نفس واحدة سواها بيديه ونفخ فيها من روحه . . فهو الأعلم بمن خلق . . ثم إن الله تعالى أقرب للإنسان في نفسه من حبل الوريد .

وحيث أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد فإنه قد اتخذ من مواجهة الإنسان بمعلومات عن نفسه وبعض أسرار تصرفاتها دليلا على قدرة الله تعالى . . وأن تشريعه الخالد هو التشريع الذي يلائم النفوس الإنسانية لضمان حياة الأمن والسلامة للفرد والجماعة . لذا فإن للمعلومات النفسية مكانة خاصة في القرآن الكريم وهي كثيرة وشاملة أكثر مما فيه من أي علم آخر(١) وإليكم بعض ذلك :

---

١ ـ قطب : محمد (دراسات فى النفس الانسانية) ص ٩

١ – لقد أقسم الله بالنفس الإنسانية – وهذا القسم الإلهي بها تكريم وتفضيل – فلا يجوز لهذه النفس أن تنسى خالقها أو أن تستهين بوجودها . أو أن تهبط بانفعالاتها وسلوكها وأخلاقها إنها (النفس) مصدر كرامة الإنسان وجوهره الأصيل .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »(١) .

٢ – معلومات نفسية في القرآن هي دليل أكيد على قدرة الله على البعث في الآخرة كما هو قادر على الخلق أول مرة وهو أهون عليه . .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ »(٢) .

٣ – معلومات نفسية في القرآن في أهمية الإحسان للوالدين مع بيان جانب من نفسية المرأة الحامل كما في الآية القرآنية :

---

١ – سورة الشمس الآيات (٧–١٠)

٢ – سورة الحج الآية ٥

« ووَصّيْنا الإنسانَ بوالدَيْه حملتْهُ أُمّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وفصَالُهُ في عامينِ أَنِ اشْكُرْ لي ولوالديْكَ إلىّ المَصِير »(١) .

٤ ـ أول ما نزل قرآناً :

لقد وردت عدة حقائق في التكوين النفسي في الآيات الأولى عند بداية الوحي الإلهي ـ في الأمر الرباني بالقراءة باسم الله . ثم بيان خلق الإنسان من علقة ثم تكرار للأمر بالقراءة مع استعداد للتعليم ويكفي الإنسان فخراً أن الله الذي خلقه بيديه كان المعلم الأول له بما وهبه من قدرات فطرية تساعده على استيعاب العلم وأن الإنسان يجب أن تكون مواهبه جميعاً (لله) الخالق الأكرم . .

« إقْرَأْ باسْمِ رَبكَ الذي خلَقَ . خلَقَ الإنْسانَ مِنْ علَقٍ . إقْرَأْ ورَبُكَ الأكْرَم . الذي علّم بالقَلمِ . علّم الإنسانَ ما لم يعْلَم »(٢) .

٥ ـ شخصيات واقعية لكنها نماذج :

ذكر القرآن بعض المواقف النفسية المكثفة في عدة مواطن . منها سورة (الهُمَزة) التي تقدم لنا شخصية واقعية شاذة ذات دوافع متكبرة تحتقر الناس غمزاً ولمزاً . وهي أيضاً ذات سمات أنانية مادية هدفها جمع المال رجاء الخلود ولكن هيهات . . هذا نموذج نفسي كان في البيئة التي عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إن أمثال هذا النموذج المنحرف من الشخصية يتكرر

---

١ ـ سورة لقمان الآية ١٤

٢ ـ سورة العلق الآية ١ـ٥

في كل مجتمع مع كل جيل في نمط يغتاب الناس ويطعن فيهم غروراً . .

« وَيْلٌ لكُلِّ هُمزَةٍ لُمَزَةٍ . الذي جَمَعَ مالاً وعدَّدهُ . يحْسَبُ أَنَّ مالهُ أَخْلدهُ . كلاّ لَيُنْبَذَنّ في الحُطَمَة »(١) .

كما نجد بعض المواقف النفسية المكثفة التي تمهد لتشريع إلهي في حماية الحياة الإنسانية أو نموذجاً لاحقاً لبيان أهمية تشريع قد تقدم بيانه كما سنقدم شرحاً لذلك في الفصلين المتعلقين بالمواقف النفسية في القرآن .

● **من المعجزات القرآنية في علم النفس :**

مرة أخرى نؤكد أن القرآن ليس بكتاب علمي يقرر الحقائق ويقدمها جاهزة للإنسان لأن تلك الحقائق يجب على الإنسان نفسه أن يسعى إليها بوسائل الملاحظة والتجريب .

إنما القرآن هو كتاب هداية يبين للإنسان الطريق الأمثل لفهم الحياة وليقيم صلة دائمة بالله إيماناً وعبادة وحسن مراقبة وفي ضوء هذه التربية الإلهية نجد أن القرآن :

١ – يدعو إلى الإيمان بالله مبدأ وهدفاً لكل نشاط إنساني .

٢ – يكرم العقل الإنساني ويشجع العلماء على النظر والتفكير في الكون والنفس وفرق كبير بين إيمان يكرم العقل ويدعو لاستخدامه وبين دين أو مذهب يخدر العقل أو يدعو لإلغائه .

٣ – يقدم للإنسانية أمثلة تلفت نظرها إلى مظاهر الكون وسننه وقواه وإلى النفس ومكوناتها مع تأكيد أن هذه الأمثلة

---

١ – سورة الهمزة الآيات (١–٤) .

الكونية العلمية والنفسية هي أدلة قدرة الله المعبود وهي أيضاً تنبيه إلى ما في الأرض وفي النفس من آيات وسنن وإمكانات .

ومن هذا المنطلق يجد الباحث في القرآن غير قليل من المعجزات العلمية ولا سيما في مجال علم النفس حيث الكثير من هذه المعجزات وقد آثرت شرحها في الفصل المناسب مكتفياً هنا بثلاث منها .

● **ضعف ·· ولكن :**

الضعف الإنساني حقيقة نفسية أساسية في التكوين العام حين يقارن الإنسان أمام قوى الكون وكوارثه . غير أن هذا الضعف يستطيع الإنسان أن يحوله إلى قوة إيمانية بالله تزيد ثقته وتوجه عقله وعلمه إلى مكافحة الشر والمرض . والآفات والفساد ، أما إذا ترك ضعفه ينحدر به استسلاماً لدوافع مرضية لا ترتوي وتغريه بالانحرافات التي يضعف في مقاومتها فإنه يجني على نفسه وعلى من حوله كل خراب وفساد أو ضياع وجريمة .

هذه الحقيقة النفسية السلوكية يقدمها القرآن في سياق الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى واحداً معبوداً — ويضرب لذلك — مثلا — إذ لا يستطيع الشركاء الضعفاء أن يخلقوا أي شيء من العدم — ولو كان ذباباً — وهو الحيوان الصغير الضعيف إذا ما قورن بالأسد أو الفيل أو النمر أو الجاموس . على الرغم من أن سر الحياة المعجز موجود فيها جميعاً .

ولعل الحكمة وهي التي كان الناس ومنهم العلماء لا يعلمون منها شيئاً يوم نزول القرآن هو أن الذباب على الرغم من حجمه الصغير وقوته الضعيفة يحمل أشد أنواع الأمراض فتكاً بالإنسان إذ يسلبه

الصحة ثم الحياة كلها – لأنه يحمل ميكروب الرمد والدوسنتاريا – والسل الخطير وحمى التيفود وأمثالها ويتم الإعجاز القرآني حين يقرن الله تعالى ضعف الإنسان في استسلامه للهوى والكفر مع خطورة ذلك الإنسان الكافر الباغي على غيره من عباد الله الآمنين المؤمنين . حين يقرن ذلك بالذباب في ضعفه وفي خطورته في نفس الوقت على من حوله من الأصحاء المعافين ولنتدبر هذه الآية القرآنية التالية :

« يا أَيّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتمِعوا لهُ إنّ الذينَ تدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوْ اجْتمعوا لَهُ وَإنْ يَسْلُبهم الذبابُ شيّئاً لا يسْتَنْقِذُوهُ منْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ والمطْلُوب »(١) .

● **حقيقة جسمية نفسية :**

يذكر علم وظائف الأعضاء أن المخ الإنساني فصان يتحكمان بالإنسان حيث بدأ فص واحد منهما بالسيطرة على الآخر . وهذه السيطرة لا تعني أن الفص الآخر متعطل عن العمل بل يقوم بعمله تحت سيطرة الفص المهيمن . وهذا من رحمة الله في وحدة القيادة الإنسانية في فص واحد من المخ .

وهذا المخ حياته ونشاطه بواسطة الدم الواصل إليه عن طريق الشرايين . بينما الدم بعد تمام تنشيط المخ يعود في قنوات صغيرة تتجمع من خلايا المخ وعددها أكثر من ١٣ مليون خلية تسجل كل ما يصل إليها من أحاسيس عن طريق الحواس إلى جانب حفظ المعلومات والأفكار للإنسان (٢) .

---

١ – سورة الحج الآية ٧٣

٢ – أبو العزائم : د٠ جمال ماضى (القرآن وعلم النفس) ص (٣–٥) بحثه فى ندوة علم النفس والاسلام – جامعة الرياض – كلية التربية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م المجلد الاول

هذه القنوات الدموية الصغيرة تتجمع في (وريد) واحد يحمل الدم إلى القلب . فهذا الوريد الوحيد الضخم النازل من المخ إلى القلب هو صاحب الصلة الوثيقة والدائمة بمركز القيادة في المخ كما أنه يحمل الدم الذي أنهى وظيفته في تغذية المخ تسجيلا للأحاسيس والمعلومات وعمليات التفكير هذه الحقيقة المزدوجة (جسمياً ونفسياً) لم يكن أحد من البشر يعرفها يوم نزول القرآن بل إن العلماء المتخصصين قد عرفوها بعد مضي ألف سنة من نزول هذه الآية المعجزة التي ابتدأت بذكر خلق الله للإنسان – والخالق أعلم بمن خلق – وأنه يعلم ما توسوس به نفسه في مركز القيادة المخي وما فيه من عمليات التصور والتفكير . وأن الله أقرب إلى الإنسان من نفسه من حبل الوريد الذاهب من المخ إلى القلب وبه تتجدد حياة الإنسان لتستمر وصدق الله العظيم :

« وَلقدْ خَلقْنا الإنْسانَ وَنعلْمُ ما تُوَسْوِسُ بهِ نفْسهُ ونحْنُ أَقْرَبُ إليهِ منْ حبْلِ الوَريد »(١) .

● **مبدأ التدرج في تغيير العادات :**

للعادة أثرها المستحكم في السلوك – حتى قيل (العادة طبيعة ثانية) وكانت عادة شرب الخمر عادة فاشية لدى أكثر الأمم قبل الإسلام . كما كانت قوية الجذور بين العرب في الجاهلية .

والخمر عادة سيئة تفسد التفكير والانفعال والسلوك والعلاقات الفردية والاجتماعية ، والتربية الإسلامية تريد القضاء على هذه العادة السيئة فسار القرآن الكريم سبيل التدرج الإقناعي في خطوات متتابعة كما يلي :

---

١ – سورة ق الآية ١٦

الخطوة الأولى :

عدم مدح تلك العادة (السكر) في مقام مدح غيره مقروناً به وهذا تمييز في القيمة الخلقية بدرجتها المبدئية . وكان ذلك في سياق بيان ما أنعم الله به على الإنسان من ماء أحيا به الأرض ومن أنعام فيها ثروة حيوانية ـ فكانت الآية في سورة النحل وهي مكية :

« وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخيلِ والأعنابِ تَتَّخِذُونَ منْهُ سَكَرَاً ورزْقاً حَسَناً إنّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يعْقِلون »(١) .

مما يتخذ من هاتين الشجرتين من (سكر) يخامر العقل ـ وما يتخذ من رزق حسن حلال مثل التمر والعنب والفاكهة والزبيب والخل وغيرها . وفي تسمية الخمر ـ بالسكر : إشارة إلى أثرها الإدراكي والإنفعالي السيء .

الخطوة الثانية :

بيان ماللخمر من أضرار انفعالية واجتماعية على الرغم من ما قد يصيب بعض الناس من منافع مادية وهم تجار صناعة الخمر ـ ومن ربح بالميسر على حساب الخاسرين : كما في سورة البقرة وهي مدنية :

« يَسْألونكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسرِ . قُلْ فيهِما إثْمٌ كَبيرٌ ومنافعُ للنّاسِ وإثْمُهُما أَكْبرُ مِنْ نفْعِهِما »(٢) .

---

١ ـ سورة النحل الآية ٦٧

٢ ـ سورة البقرة الآية ٢١٩

الخطوة الثالثة :

يورد القرآن تحريم الخمر تحريماً جزئياً على المؤمنين وقت أداء الصلاة ليدرك المصلي ما يتلو من القرآن . . إدراكاً سليماً وكانت الآية في سورة النساء .

« يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تَقْرَبوا الصّلاةَ وأنْتم سُكارى حتّى تَعْلَموا ما تَقُولون »(١) .

الخطوة الرابعة والاخيرة :

لقد تهيأت العقول لإدراك آثار الخمر . كما استعدت النفوس للإقلاع عنها فكان التحريم الكلي والأبدي . .

« يا أيّها الذينَ آمنوا إنّما الخَمْرُ والميْسرُ والأنْصَابُ والأزْلامُ رجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشّيْطانِ فاجْتَنِبوهُ لَعلّكُم تُفْلحون . إنّما يُريدُ الشّيْطانُ أنْ يُوقِعَ بيْنكُم العَدَاوَةَ والبغْضَاء في الخمْر والميْسرِ ويَصُدّكُم عَنِ ذِكْر الله وعَنِ الصّلاةِ فَهَلْ أَنْتم مُنْتَهون »(٢) .

وكانت النتيجة النفسية التربوية لهذا المبدأ النفسي الفعال في التدرج لاستئصال العادة السيئة — لا سيما وختام الآية :

« فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُون » . .

---

١ ـ سورة النساء الآية ٤٣ .

٢ ـ سورة المائدة الآيتان (٩٠ ، ٩١) .

بهذا التوجيه اللطيف : قال المؤمنون بكل حماس صادق قد انتهينا يا رب . حتّى كان الرجل وفي يده الكأس قد شرب منها بعضاً وبقي بعض فينتزع الكأس من فيه ويفرغها على التّراب عند سماع هذه الآية . . إنه القرآن بأسلوبه النفسي الفريد (١) .

١ ـ الهاشـمى : د· عبد الحميد (المخـدرات وأثرها فى الحيـاة النفسية للانسان) ص ١٧٦ ـ بحث فى مجلة كلية التربية ـ السنة الثانية ـ العدد الثاني ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م ·

الفصـــل الثـــاني

التكوين النفسي للانسان فى القرآن

● **مقومات التكوين الانساني :**

تراب الأرض .
عملية التسوية التكوينية .
نفخة من روح الله .
نتائج أولية للمقومات .

● **مراحل التكوين النفسي :**

مرحلة البداءة الأولية .
مرحلة الاتصال الزوجي .
مرحلة الجنين .
طور ما بعد الولادة .
مرحلة الخروج حياً .
مرحلة الطفولة .
مرحلة الأشد .
مرحلة الكهولة .
مرحلة الشيخوخة .
القرآن ومسيرة الحياة الدنيا .
قراءة علمية هادفة .

(مقومات التكوين الانساني)

الإنسان كائن فريد يتميز علي سائر الكائنات الحية بوجود (شخصية) له يشعر بها ويدرك أبعادها . فهو إلى جانب تكوينه المادي العضوي لديه قدرات عقلية وميول روحية ومشاعر إنفعالية عاطفية . وكل ذلك في جسم دقيق معقد معجز فتبارك الله أحسن الخالقين. في ضوء ما تقدم من حقائق علمية في مجال الدراسات التشريعية والنفسية نستطيع أن ندرك بوضوح بعض ما تضمنته الآية القرآنية الخالدة :

« إذْ قالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إني خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ . فإذَا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنّ رُوحي فقَعُوا لهُ ساجدين » (١).

تشير إلى أن خلق الإنسان فيه :

أولا : الطين يمثل مادة الأرض .

ثانياً : عملية التسوية التكوينية .

ثالثاً : نفخة من روح الله .

أولا ـ الطين :

يمثل الطين في هذه الآية إحدى مراحل تكوين الجانب المادي الأرضي للإنسان وبدراسة استقصائية لورود هذا الجانب التكويني الجسدي في الآية القرآنية نستطيع أن نقدمها مرتبة متسلسلة كما يلي :

١ ـ إنبات من الأرض ـ لأن الأرض هي المهد العام للإنسان بكل ما فيها من عناصر كما أنها المستقر الرئيسي لنشاطه ـ .

---

١ ـ سورة ص الآيتان (٧١ ، ٧٢) .

وَاللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً . ثُمَّ يُعِيدكُم فيها ويُخْرِجكُم إخْراجاً . واللهُ جَعَلَ لكُم الأرضَ بِساطاً . لِتَسْلكُوا منها سُبُلاً فِجاجاً »(١) .

٢ ــ من التراب : فجسم الإنسان في تكوينه العضوي كما يؤكد علم الكيمياء العضوية يتكون مما يتكون من تراب الأرض وصعيدها مثل الأكسجين والإيدروجين والكربون والحديد والنحاس والكلسيوم والزرنيخ والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم ويتمثل في هذا الجانب تكوين الجسم مادياً في مطالبه العضوية في الأكل والشرب والنوم والجنس وما إليها .

والله يقول في سورة الحج :

« يا أَيّها النّاسُ إنْ كُنْتم في رَيْبٍ مّنَ البَعثِ فإنّا خَلَقْناكُم مِنْ تُرَابٍ »(٢) .

٣ ــ من الماء : فالماء مادة مهمة جداً للحياة الجسمية للإنسان فعلى الرغم من أن الماء لايمنحنا طاقة حرارية ولايبني خلايا جديدة إلا أنه أساسي في الغذاء الإنساني إذيساعد على إذابة الغذاء وإيصاله إلى جميع أجزاء الجسم كما يساعد في عملية التخلص من الفضلات .

ثم إن الماء يدخل في أكثر المواد فالخضروات والفاكهة فيها من الماء حوالي ٩٥ ./ من وزنها ، واللحم الطازج فيه أكثر من ٥٠ ./ ماء . واللبن فيه حوالي ٩٠ ./ بل إن الجسم الإنساني فيه من الماء ما يساوي ثلثي وزنه العام ــ ولهذا يشرب الإنسان كل يوم كمية غير قليلة من الماء وصدق الله العظيم حيث يقول :

---

١ ــ سورة نوح الآيات١٧ــ٢٠ . ٢ ــ سورة الحج الآية ٥ .

« وهُوَ الذي خَلقَ من المَاءِ بَشَراً فَجَعَلهُ نَسَباً وَصِهْراً وكانَ رَبُّكَ قَدِيراً »(١) .

« وَاللهُ خَلَقَ كلَّ دابّةٍ مّنْ ماءٍ فمِنْهم مّنْ يمْشي على بَطْنهِ ومنْهم مّنْ يمْشي على رجْلينِ ومنْهم مَنْ يمْشي على أرْبع يخْلُقُ اللهُ ما يشاء، إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قَدِير »(٢) .

« أوَ لَمْ يرَ الذينَ كَفروا أنَّ السّمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعلنا مِنَ المَاء كلَّ شيءٍ حَيّ أفلا يُؤْمِنُون »(٣) .

٤ ـ من طين ـ وهو نتيجة تجمع تراب الأرض مع الماء كما ورد في الآية :

« إذْ قالَ رَبُّكَ للملآئكَةِ إنِّي خالقٌ بَشَراً مّنْ طين »(٤).

وأيضاً قوله تعالى :

« وَلَقد خَلقْنا الإنْسانَ مِنْ سُلالةٍ مِنْ طين »(٥) .

---

١ ـ الفرقان الآية ٥٤ .
٢ ـ سورة النور الآية ٤٥ .
٣ ـ سورة الأنبياء الآية ٣٠ .
٤ ـ سورة ص الآية ٧١ .
٥ ـ سورة المؤمنون الآية ١٢ .

٥ ــ من حمأ مسنــــون :

الحمأ بفتح الحاء والميم وكذلك (الحمأة) بسكون الميم من الطين الأسود ، والمسنون هو المتغير ، وهذه نتيجة لاجتماع التّراب والماء لفترة من الزمن إذ يقول تعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُون » .

« وَالجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنَّ نارِ السّموم »(١) .

٦ ــ من صلصـــال :

الصلصال هو الطين الحر خلط بالرمل وقد أخذ يجف فصار يتصلصل أي يصدر صوتاً كالفخار وذلك من قوله تعالى :

« خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخار »(٢) .

ولقد اقتران الحمأ المســـنون مع الصلصال بشـــكل تتابعي ثلاث مرات في ثلاث آيات في سورة الحجر . مرتان حكاية لقوله تعالى :

« وَلَقدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ منْ حَمَأٍ مَسْنُون »

« وَإذْ قالَ رَبُكَ للملائكةِ إنِّي خالقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مسْنون »(٣) .

---

١ ــ سورة الحجر الآيتان (٢٦ــ٢٧) .

٢ ــ سورة الرحمن الآية ١٤ .

٣ ــ سورة الحجر الآيتان (٢٦و٢٨) .

ومرة حكاية لقول إبليس حين امتنع عن السجود للإنسان الأول :

« قالَ لَمْ أكُنْ لأسْجُدَ لِبَشَرٍ خلَقْتهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ »(١) .

ثانيا ـ عملية التسوية التكوينية :

بعد ذكر المادة الأرضية الترابية في مراحل تغيرها يذكر الله عملية (تسوية الإنسان) معطوفة بالأداة (فاء) التي تفيد العطف مع الترتيب المتعاقب وتقترن الفاء مع أداة الظرف الزماني (إذا) تأكيداً لعملية التسوية التي استغرقت زمناً غير قليل . . ويتأكد هذا المعنى لطول فترة التسوية حين يرد في سورة السجدة العطف بأداة (ثم) التي تفيد الترتيب الزمني المتراخي نسبياً لاتقان الخلق وتحسينه كما في قوله تعالى :

« الذي أَحْسَنَ كلَّ شَيءٍ خلَقَهُ وَبَدَأَ خلْقَ الإنْسانِ مِنْ طِينٍ ، ثمَّ جعَلَ نَسْلهُ مِنْ سُلالةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثمَّ سوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِه وَجعَل لكُم السَّمْعَ وَالأبْصَارَ والأفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ »(٢) .

وعملية التسوية ليست مجرد جمع خلطي لمواد أرضية بل تتضمن صناعة متقنة دقيقة معجزة ـ ويكفي أن نتصور ما تقوم به الأجهزة العضوية الإنسانية في الحواس المختلفة وما يتصل بها من إدراك حسي وما يقوم به الجهاز العصبي

١ ـ سورة الحجر الآية ٣٣ .
٢ ـ سورة السجدة الآيات (٧ـ٩) .

ومراكزه من استقبال وحفظ واسترجاع وإصدار أوامر واتصالات وما تقوم به الأجهزة التنفسية والدموية والهضمية والبولية والحركية مثلا من عمليات كيميائية وحركية في كل لحظة من ليل ونهار في حياة الإنسان . إن ما تقوم به تلك الأجهزة عمليات معقدة يجب أن نتصور معملا ضخماً يعمل به ما لا يقل عن عشرة آلاف عامل لكل واحد منهم تدريبه التخصصي يعمل كل في ميدانه مع اتصالاته السلكية و اللاسلكية بجميع العمال . وكلهم في بناء ضخم يتكون من مائة طابق — في كل طابق خمسون غرفة وفي كل غرفة عاملان للعمل المتواصل مع دوران الساعة .

هذا التصور يقدم لنا فكرة عن عملية (التسوية الإلهية) المعجزة في خلق الإنسان . وصدق القائل :

وتحسب إنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

ولقد وردت (عملية التسوية) عدة مرات في القرآن بصيغ مختلفة في بيان خلق الله للإنسان كما في قوله تعالى :

« فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُّوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ »(١) .

« ثُمَّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فيهِ مِنْ رُّوحِهِ »(٢) .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاها.فألهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها »(٣) .

« الذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدلكَ »(٤) .

---

١ — سورة الحجر الآية ٢٩ .   ٢ — سورة السجدة الآية ٩ .
٣ — سورة الشمس الآيتان (٧و٨) . ٤ — سورة الانفطار الآية ٧ .

ولبيان أثر التسوية الإلهية وأهميتها في التكوين الإنساني وأن هذه التسوية هي التي وهبت العناصر المادية العادية أهميتها الجوهرية في التكوين الممتاز لهذا الكائن الإنساني .

لبيان ذلك نضرب المثل بما يصنعه الإنسان نفسه ولله المثل الأعلى.

خذ مثلا الساعة التي يصنعها الإنسان والتي قد تكون قيمتها مئة ريال ، إن ما فيها من مواد معدنية وغيرها قد لا يتجاوز قيمته عشرة ريالات أما التسعون ريالا فهي قيمة الصناعة الفكرية العلمية اليدوية وتلك هي التي جعلت للساعة على الرغم من رخص موادها الأولية أهمية ذات ممن يزداد بدقة الصناعة وتعقيدها أضعافاً مضاعفة .

وهذا ما ينطبق في بيان عملية الصناعة التي يقوم بها الفكر الإنساني في السيارة والطائرة والراديو والباخرة . . مثلا .

قلت ولله المثل الأعلى . . بيد أن عملية التسوية الإلهية للإنسان تتأكد في القرآن إلى جانب ما سبق من الآيات المقدمة آنفاً .

ما خص الله به الإنسان : إذ خلقه بيديه إذ يقول الله تعالى :

« قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ »(١) .

ثالثا ـ نفخة من روح الله :

هذه المرحلة الأخيرة في تكامل الكيان الإنساني . وهذه النفخة من روح الله ـ تؤكد مبدأ أهمية صلة الإنسان بالله ليحفظ بتلك الصلة سموه وكماله واستقامته . وإنه أهل لكل ذلك وهذه هي

---

١ ـ سورة ص الآية ٧٥ .

الخصوصية الكبرى التي يتميز بها الإنسان على بقية الحيوانات حتى الراقية منها لأن تلك الحيوانات ذوات اهتمام جسدي واحد تعيش في مستواه في جميع مراحل حياتها وفي تعاقب أجيالها ـ حياة تسير بقدرات أولية وراثية تبدأ مع الحياة وتسير معها في أكل لضمان العيش وفي تناسل لضمان النوع . ثم ليموت الكبير وليبدأ الصغير في ذات الحلقة وبذات الميول الجسدية البحتة . أما الإنسان وهو نفخة من روح الله فإنه سيد الكائنات وخليفة الله في الأرض وهذه النفخة الروحية تتجلى فيما يلي :

(أ) الجانب الروحي المؤمن بالله فطرة وقناعة فكرية وإرشاداً نبوياً .

(ب) الإدراك الواعي الذكي بما وهبه الله من عقل ينمو وجهاز عصبي ذي مرونة عجيبة خارقة .

(ج) حرية الإنسان في اختياره لطرائق السلوك والتعبير فهو ذو إرادة .

(د) القدرة على تنفيذ ما يختاره بإرادته الحرة .

(هـ) المسئولية الإنسانية باعتبارها نتيجة لحرية الإرادة وقدرة العمل .

(و) إمكانية الضبط الذاتي للنفس الإنسانية وهو مناط المسئولية والتكليف وطريق التسامي الإنساني للتوجيه والإرشاد .

● **نتائج أولية للمقومات :**

مما تقدم في بيان المقومات الأساسية في التكوين الإنساني تراباً أرضياً فعملية التسوية الإلهية ونفخة من روح الله نلمس الحقائق النفسية التالية :

١ ـ احتفاظ كل عنصر بخصائصه المهمة لأساسية :

فعنصر التراب الأرضي يتمثل في مطالب الجسد العضوية والدافع لذلك هو الجوع والعطش ابتغاء الأكل والشرب . وكذلك المطالب الجنسية في التركيب الجسمي تدفع لتحقيق الزواج والأبوة والأمومة والبنوة ـ والجانب الروحي يتمثل في المطالب الروحية والخلقية ومسؤلية الحرية والإرادة وإشباعها يم بالإيمان بالله واحداً معبوداً . وعدم إشباعها ينحط بالإنسان ليعيش قلقاً تائهاً في حياة حيوانية هائمة .

٢ ـ الجانبان الرئيسيان في التكوين الإنساني (الأرضي والروحي) يتفاعلان دائماً . ولا ينفصلان لبناء الحياة النفسية الإنسانية المتكاملة فدافع الجوع وهو الجسمي يدفع إلى طلب الطعام الحلال الطيب وليس إلى أكل ما هب ودب . وكذلك دافع الجنس وهو عضوي يدفع إلى الإتصال الجنسي فالإنسان المتكامل يسعى إلى الزواج الحلال الشريف حيث السكينة والاستقرار والأسرة والذرية . وليس إلى حياة حيوانية بهيمية .

٣ ـ الكائن الإنساني على الرغم من تعدد ميوله واختلاف مصادرها ومستويات إشباعها سواء كانت جسدية أو روحية أو نفسية انفعالية . هو كائن حي متوحد متكامل .

وكل محاولة للاهتمام بجانب واحد تركيزاً واهمال الجوانب الأخرى . هي تشويه للإنسان . ونظرة جزئية لكيانه ، وهي بالتالي تؤدي إلى نقص في فهم الإنسان ، وإسقاطه في بؤرة الانحراف النفسي والعقلي . . بعيداً عن الحياة السوية للإنسان المتكامل .

(مراحل التكوين النفسي للانسان في القرآن)

يشير القرآن إشارة صريحة و دقيقة إلى أهم معالم مراحلها الكبرى والأساسية في آثارها النفسية والجسدية والفكرية . في عدة آيات متفرقات ولا سيما في هذه الآية الكريمة التالية :

« هُوَ الذي خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجكُم طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكم ، ثُمَّ لِتكُونوا شُيُوخاً ، ومنكُم مَن يُتَوَفّى مِنْ قَبْلُ ، ولِتَبْلُغوا أجلاً مُسمّى ، ولَعَلّكم تَعْقِلُون »(١) .

إنها آية واحدة أوجزت سيرة الحياة الإنسانية في هذه الدنيا حين ركزت على المراحل المهمة في التكوين : تراباً أصلا أولياً للإنسانية ونطفة بدءاً لحياة الجنين – ثم علقة في تسميتها الصادقة شفافية التكوين الوظيفي ثم الطفولة مرحلة تأسيسية لمرحلة الرشد الشديدة القوية التي تمثل هضبة العمر يليها انحدار الشيخوخة . . ومن الناس من يتوفى قبل الشيخوخة ولكن لا بد لكل حي من أجل مسمى : ويزداد الإعجاز القرآني في توقيت المراحل حيث يربط بينها خمس مرات بكلمة (ثم) التي تفيد الترتيب المنظم مع التراخي المناسب في التوقيت . وهذه المراحل كما تشير الآية الكريمة على الرغم من تعاقبها المنظم فإنها ليست حتمية لكل إنسان حي فهناك أفراد أدركهم الأجل في سني المهد أو في عنفوان الشباب أو شرخ القوة . ومنهم من يتابع السير بحول الله إلى الشيخوخة . وسيقدم البحث تفصيلا لكل مرحلة مع فتراتها الداخلية وسماتها مقترنة بالآيات الكريمات المناسبة .

---

١ – سورة غافر الآية ٦٧ .

أولا : مرحلة البدء الاولية :

يشير القرآن إلى أن بداية الحياة الإنسانية على وجه الأرض ابتدأت من (نفس واحدة) ـ وفي هذا بيان لأهمية النفس ـ وأنها واحدة أصـلا فجميع أفراد الانسان أصلهم واحد . فليس لأحد أن يدعي تمايزاً عنصرياً أو عرقياً أو دموياً ما دام الأصل واحداً ـ وهذه النفس الواحدة تحددها آيات كثيرة انها (آدم) أبو البشر عليه السلام قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » . (١)

ووجود الأصل الواحد وهو النفس الإنسانية المتمايزة بداية تكويناً تنفي دعوى اتصال الحياة الإنسانية بحياة حيوانات بهيمية أخرى . . فالإنسان مكرم أصلا وابتداء حياته في المستوى الإنساني أساساً .

وفي الآية أيضاً تأكيد لمبدأ المساواة الإنسانية بين الرجل والمرأة لأنها مخلوقة من الرجل أصلا وقوام حياتهما علاقة زوجية مثمرة ذرية ـ حيث الأرض بيت الأسرة التي بين أفرادها أرحام وصلات يسأل الله عنها .

ثانيا ـ مرحلة الاتصال الزوجي :

إن الرجل يقذف وهو في حالته المتوسطة عمراً وصحة في الدفقة الواحدة كمية من المني تحمل ما يقارب ربع مليون من

---

١ ـ سورة النساء الآية ١ .

الحيوان المنوي ، ومن بين هذا العدد الهائل يظفر حيوان واحد في العادة ليقوم بعملية الإخصاب لبويضة المرأة التي تكون آنذاك قد وصلت إلى قناة (فالوب) من رحم المرأة المخصبة — ثم من بعدها إلى الرحم . قال تعالى :

« الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ » . (١)

وهذه المرحلة سماها القرآن بمرحلة (النطفة)

(أ) نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية

(ب) نطفة الأنثى وهي البويضة

(ج) نطفة امشاج وهي النطفة المختلطة من حيوان الرجل ببويضة الأنثى وهي البويضة الملقحة التي تعتبر بداية مرحلة خلق الإنسان وتبدأ تلك البويضة بالانقسامات الذاتية الداخلية في نفسها لتصبح خلال أسبوع واحد أشبه بالكرة الجرثومية لا يزيد حجمها عن ربع ملليمتر، أما تحديد جنس الإنسان ذكراً أو أنثى فيتم ذلك حسب تمازج صبغيات نطفة الذكر مع صبغيات بويضة الأنثى إذ يحتوي كل منهما على (٢٣) صبغياً فإن تمازجت كل صبغيات نطفة الرجل (٢٤) مع كل صبغيات بويضة الأنثى كان الجنين أنثى . أما إذا انتظم (٢٣) زوجاً وظل صبغيان باقيان دون تمازج كان الجنين ذكراً — وذلك لأن صبغيات المرأة كلها من نوع واحد(X)

---

١ — سورة السجدة الآيات (٧-٩) .

أما صبغيات الرجل فنوعان (X) و (Y) فإذا التقى X المرأة بـ X الرجل كان الجنين بنتاً . وإن التقى X المرأة بـــ (Y) الرجل فالجنين ذكر ، لذا فالمسئول عن تحديد نوع الجنين هو الرجل وليست المرأة . وصدق الله العظيم :

« فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِق ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ ، إنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ » (١) .

ثالثا ـ مرحلة الجنين :

يشير القرآن الكريم إلى هذه المرحلة تأكيداً لعلمه بمن خلق وأنشأ ولا سيما في المرحلة الأولى للحياة الإنسانية فيقول الله تعالى :

« هُوَ أعْلَمُ بِكُم إذَا أنْشَأكُم مِنَ الأرْضِ وَإذ أنْتُم أجِنَّةٌ في بُطُونِ أمَّهَاتِكُم فَلاَ تُزَكُّوا أنْفُسَكُم هُوَ أعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » (٢) .

إن مرحلة الحياة الجنينية تبدأ من لحظة التلقيح المخصب الذي يتم بين الحيوان المنوي للذكر والبويضة الأنثوية ـ لذا فإن ما ذكرناه آنفاً في المرحلة بما يتعلق بالنطفة المختلطة (امشاج) وهي البويضة الملقحة هي بداية المرحلة الجنينية ولقد ذكر القرآن الكريم هذه المراحل مفصلة في الآية الكريمة التالية في سورة المؤمنون :

---

١ ـ سورة الطارق الآيات (٥ـ٨) .
٢ ـ سورة النجم الآية ٣٢ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَهَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاما فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ، ثُمَّ إنّكُم بَعْدَ ذَلكَ لَمَيِّتُون ، ثُمَّ إنّكُم يَوْمَ القِيامَةِ تُبْعَثُون » (١) .

فمرحلة حياة الجنين في رحم الأم تمر بخمسة أنماط من التطور الإنساني المتسلسل كما يلي :

(أ) النطفة في قرار مكين في الرحم وهي النطفة الملقحة المخصبة ــ كما تقدم شرحها آنفاً ــ

(ب) العلقة ــ وهذه الفترة تبدأ بعد لحظة الإخصاب بأسبوع واحد وقد أصبحت النطفة بشكل كرة جرثومية (٢) وبرزت منها معاليق متعددة صغيرة تستطيع بها العلقة أن تلتصق بجدار الرحم ــ لذا فتسمية النطفة في هذا الطور (بالعلقة) تسمية صادقة علمياً كل الصدق ــ . وبعد تعلق (العلقة) بجدار الرحم تبدأ تأكل منه امتصاصاً لغذائها ، أما الخلية الداخلية في العلقة فإن الله يخلق منها الجنين الإنساني وتستمر هذه الفترة أسبوعين .

(ج) المضغة ــ تبدأ هذه الفترة في نهاية الأسبوع الثالث حيث تظهر كتل جسمية بدنية جهة رأس الجنين وتتكاثر تلك

---

١ ــ سورة المؤمنون الآية ١٢ـ١٦ .

٢ ــ نسبة الى (جرثومة) الشيء بضم الجيم أى أصله (الفيروز آبادى ــ قاموس المحيط) .

الكتل حتى تبلغ حوالي الأربعين ـ فالمضغة ـ حسب النص القرآني والذي يؤكده (علم الأجنة) هي قطعة اللحم وقد تم لوكها وقذفها وفي الآية الخامسة من سورة الحج تكون هذه المضغة إما مخلقة مكونة بخلق تام ـ أو غير مخلقة لتكون سقطاً قبل تمام التكوين الخلقي »(١) .

(د) فترة الهيكل العظمي ـ تستمر هذه الفترة خلال الأسبوع الخامس والسادس والسابع حيث تتحول الكتل البدنية الأمامية إلى عظام الفقرات وعظام الأطرا ف العليا والسفلى وفي أعلى الرأس تكون قحفة الجمجمة وعظام الوجه والفكين وهذا معظم الهيكل العظمي الأساسي .

(هـ) فترة التكوين العضلي اللحمي ـ ان الكتل البدنية الخلفية هي التي تشكل الجلد الآدمي وما تحت الجلد من أنسجة لحمية وفيها عضلات الأطراف العليا والسفلى ـ وتتكون العظام أولا ثم وبعد بضعة أيام تتكون العضلات اللحمية لتكسو العظام بقدرة الله تعالى . كما أن الهيكل الغضروفي للأطراف العليا يبدأ نموه قبل الأطراف السفلى ببضعة أيام ويظهر ذلك بوضوح خلال الأسبوع السابع وصدق الله العظيم :

« فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا . . . » (٢) .

(و) خلق آخر :

« ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ »

---

١ ـ البـار : د. محمد على (خلق الانسـان بين الطب والقرآن) ص ١١٣ـ١٤٥ .

٢ ـ سورة المؤمنون الآية ١٤ .

يدخل الجنين في الشهر الثالث القمري وما بعده فترات من التكوين النامي السريع والمعقد ، وتزداد به السمات الإنسانية الظاهرة والباطنة . فالجهاز العصبي ويشمل الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب تتكامل أسسه . . وهو الجهاز الوحيد الذي يلازم الإنسان طول حياته فلا يتغير بعد الولادة في هدم أو بناء وإنما تتغير اتصالات بعض الخلايا العصبية ببعضها الآخر في مراحل خريف العمر من الكهولة والشيخوخة .

وفي هذه الفترة من الشهر القمري الثالث تبدو أجزاء من القلب . وتبدأ بالظهور بعض معالم الجهاز البولي ، وفي الشهر الرابع تظهر بوضوح الأجهزة الجنسية للصبي والبنت ـ ثم في الشهر السادس ينمو القلب والكبد ، وفي الشهر السابع ينمو ـ الجهاز الهضمي ـ وفي الشهر القمري الثامن تظهر السرة في مكانها مع نمو سريع عام للجنين ، وفي الشهر التاسع يتكامل نمو الجسم في جميع أحشائه وأجهزته ، فإذا كان الشهر القمري العاشر تكتمل الرئتان . ويتكامل النمو استعداداً للولادة في أية لحظة مناسبة .

رابعا : طور ما بعد الولادة في الحياة الدنيا :

تتم الولادة وقد اكتمل النمو الضروري الأساسي لمتابعة الحياة خارج الرحم . ويكون الجنين قد أكمل حوالي ٢٥٦ يوماً من لحظة التلقيح . . وهي فترة تتراوح حول هذا العدد من الأيام زيادة ونقصاً لعوامل مختلفة وتعتبر الولادة فاتحة عهد جديد للحياة الإنسانية خارج الرحم حيث يسير الكائن الإنساني في هذا الطور بمراحل تكوينية نفسية كبرى ، ولقد أشار القرآن الكريم في عدة آيات متفرقات إلى أهم تلك المراحل كما يلي :

١ ـ مرحلة الخروج حيا .
٢ ـ مرحلة الطفولة .
٣ ـ مرحلة الأشد .
٤ ـ مرحلة الكهولة .
٥ ـ مرحلة الشيخوخة .

● **مرحلة الخروج :**

يسمي القرآن مرحلة الولادة مرحلة الخروج لأن الإنسان حيّ قبل أن يولد ـ وكل ما في الأمر أن الولادة سمحت له بالخروج من عالم (الأرحام) إلى (الحياة الدنيا) . كما في قوله تعالى :

« ثُمَّ يُخْرِجكُم طِفْلا ثُمَّ لتَبْلغُوا أَشُدَّكُم » (١) .

والآية :

« وَنُقِرُّ في الأرْحَامِ مَا نَشَاء إلى أجَلٍ مُسَمّى ، ثُمَّ نُخْرِجكُم طِفْلا » (٢) .

والآية :

« واللهُ أَخرَجَكُم مِنْ بطُونِ أمّهاتكُم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئا . . . » (٣) .

والقرآن يرعى هذه المرحلة الهامة في الحياة الإنسانية بأمور أهمها ما يلي :

---

١ ـ سورة غافر آية ٦٧ .
٢ ـ سورة الحج آية ٥ .
٣ ـ سورة النحل آية ٧٨ .

١ - اعتبار ميل الأبوة والأمومة ميلا فطرياً يتحقق بإنجاب البنوة كما أن حب الأبناء حب فطري أولي أصيل . كما في قوله تعالى :

« زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبَنِين » (١)

٢ - الدعاء لله في طلب الذرية وأنها قرة العين وسعادة العيش وإشارة لنجاح الزواج وأنه مثمر : وهي دعوة عباد الرحمن المؤمنين :

« رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ ازْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجعَلْنَا للْمُتَّقِينَ إمَاما » (٢) .

٣ - حق المولود في الحياة : فالرزق بيد الله وقد أودع في الأرض من الخيرات المسخرات ما يكفي للحياة الرخية . وعلى الإنسان أن يعمل لاستخراج تلك الخيرات لا أن يدعو لقتل الأجنة أو وأد الوليد . . قال تعالى :

« وَلاَ تَقتُلُوا أَوْلادَكُم خَشْيَةَ إملاقٍ نَحْنُ نَرْزُقكُم وَإيَّاهُم إنَّ قَتلَهُم كَانَ خِطْئاً كَبِيرا » (٣) .

٤ - حماية الأم الحامل رعاية للجنين . ولسلامة الولادة خروجاً للحياة الدنيا وذلك بضمان نفقة الزوجة الأم الحامل :

« . . . وَإنْ كُنَّ أُولات حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . . . » (٤) .

١ - سورة آل عمران آية ١٤ .
٢ - سورة الفرقان آية ٧٤ .
٣ - سورة الاسراء آية ٣١ .
٤ - سورة الطلاق آية ٦ .

٥ ــ استقبال حافل سعيد : إن نجاح عملية الولادة ليخرج الوليد حياً هو سعادة غامرة لسلامة الأم الحامل ولسلامة الوليد الجديد . . وهـــذه الفرحة ينبغي أن تكـــون شاملة من غير تمييز بين الوليد الذكر والأنثى . فكلاهما إشارة لثمرة الزواج وكلاهما زينة الحياة ، وكلاهما امتداد لحياة الوالدين ــ ولقد نهى القرآن عن عادة جاهلية كانت لدى بعض القبائل العربية وغيرها من الأمم الأخرى في عدم الاحتفال بقدوم الوليدة الأنثى فقال :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهوَ كَظِيم ، يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هَوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » (١) .

٦ ــ حق الوليد في الإرث من والده الميت :

« يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْن » (٢) .

● **مرحلة الطفولة :**

تبدأ هذه المرحلة بعد الولادة مباشرة وتمتد إلى أكثر من عشر سنوات ، ولهذه المرحلة أهمية قصوى في انتقال الوليد من مجرد كائن يتحرك إلى (شخصية إنسانية) يتكلم ويسعى ويتعاون . . ولقد رعى القرآن هذه المرحلة المهمة بعدة أمور أهمها ما يلي :

---

١ ــ سورة النحل الآيتان (٥٨و٥٩) . ٢ ــ سورة النساء آية ١١ .

١ – الرضاع الطبيعي من الأم ، إلا إذا تعذر ذلك ، قال تعالى :

« وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » (١) .

وهذا الإرشاد القرآني فيه تأكيد لحق الأمومة وحق البنوة في رضاع صحي سعيد .

ومدة الرضاع – سنتان إذا رغب الطفل في ذلك كحد أقصى وأشار القرآن إلى ذلك مؤكداً في جمع مدة الحمل والرضاع وحددها بحدودها القصوى فقال :

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً (٢) .

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » (٣) .

٢ – حق الحضانة حيث الأم هي الأولى في تأدية هذا الحق..

ويقوم الزوج الوالد بالنفقة الكافية لهما معاً :

---

١ – سورة البقرة الآية (٢٣٣) .
٢ – سورة الاحقاق الآية ١٥ .
٣ – سورة لقمان الآية ١٤ .

«وَعَلى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمعْرُوف»(١)

٣ ـ وجوب حماية اليتيم ـ . (٢)

فإن كان غنياً يوضع ماله تحت كفالة وصي محدد معين :

« وَابْتَلُوا اليَتَامَى حَتّى إذَا بَلَغُوا النّكَاحَ فَإنْ آنَسْتُم مِنْهُم رُشْدا فَادْفَعُوا إلَيْهِم أمْوَالَهُم وَلا تأكُلوهَا إسْرَافاً وَبِدَاراً أن يَكْبرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيأكُلْ بالمعْرُوف فَإذَا دَفَعْتم إليْهِم أمْوَالَهُم فَأشْهِدُوا عَلَيْهِم وَكَفَى باللهِ حَسِيبَا » (٣) .

أما اليتيم الفقير فإن القرآن الكريم بمنهجه التربوي والاجتماعي يضمن له الحياة الكريمة من بيت مال المسلمين فليس لأحد منة على اليتيم ـ كما أن القرآن لم يترك حياة اليتيم معلقة بعواطف الكرم والسخاء التي قد تضعف أحياناً لدى بعض الأفراد نتيجة ضعف خلقي أناني .

فقال تعالى :

« وَاعلَمُوا انّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَإنَّ للهِ خُمُسَهُ وَللرَّسُولِ وَلذِي القُرْبى وَاليَتَامَى . . » (٤) .

---

١ ـ سورة البقرة الآية ٢٣٣ .
٢ ـ الهاشمي : د. عبد الحميد (الرسول العربي المربي) ص ١١٧ .
٣ ـ سورة النساء الآية ٦ .
٤ ـ سورة الانفال الآية (٤١) .

وفوق هذا وذاك لا بد من رعاية إنسانية ذاتية لليتيم :

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا » (١) .

٤ — حق التنشئة التربوية :

فالطفل البشري يولد أعجز ما يكون العجز ولكن هذا العجز الطفولي قد أودع الله فيه كل مواهب النمو وقدرات التكامل بما فيه من مرونة عجيبة تساعده على قبول التنشئة والتربية والتعليم .

فالوليد يفد إلى الحياة الدنيا لا يعلم شيئاً ولكنه مستعد للتعلم بما وهبه الله من حواس وذكاء واستعداد :

« واللهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بطُونِ أُمَّهَاتِكُم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصَارَ وَالأفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ » . (٢)

و هذا الواجب في التنشئة التربوية السليمة للطفل إنما يقوم به أساساً الوالدان . لأنهما المسئولان الأوليان في هذه الفترة من الحياة كمسئوليتهما في الإرضاع والحضانة والحماية ، فقال الله في سياق الإحسان للوالدين وكريم معاشرتهما ولا سيما عندما يبلغان الكبر والشيخوخة :

---

١ — سورة النساء الآية ٩ .

٢ — سورة النحل الآية ٧٨ .

« وَاخْفِضْ لَهُمَا جِنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » . (١)

● مرحلة الاشد :

هي فترة الذروة في الفتوة والقوة والرشد . وهي تمثل هضبة العمر بعد فترة الطفولة الصاعدة النامية الناشئة . وهذه المرحلة تمتد إلى سن الأربعين حيث تمثل قمة النضوج الجسمي والإدراكي والإجتماعي : ولقد وردت الإشارة لهذه المرحلة في عدة آيات قرآنية منها . قوله تعالى :

« حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . (٢)

وهذه الآية تشير إلى عدة معالم نفسية أساسية في هذه المرحلة وهي :

١ ـ القوة الجسمية ـ الأشد .

٢ ـ النضوج الجنسي المثمر بإنجاب الذرية .

٣ ـ البلوغ الإدراكي للتكليف الشرعي مع بداية هذه المرحلة .

٤ ـ التكامل العقلي مع الوعي الشعوري للحياة .

---

١ ـ سورة الاسراء الآية ٢٤ .

٢ ـ سورة الاحقاف الآية ١٥ .

٥ ــ المسئولية الإجتماعية والخلقية نحو الوالدين والذرية .
٦ ــ الإستقلال الإقتصادي في مهنة لكسب الرزق .
٧ ــ النقد الذاتي في التوبة الصادقة والرجوع إلى الله تعالى .

ويقابل مرحلة الشدة (في التقسيم القرآني)مرحلة (الرشد) المبكر والمتوسط والمتأخر في علم النفس التكويني .

● **مرحلة الشيخوخة :**

هي مرحلة الختام في الحياة الإنسانية لمن كتب الله له عمراً طويلاً مديداً ، وتكون بعد مرحلة الشدة والقوة ــ كما في الآية الكريمة :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ » (١) .

وتتميز هذه المرحلة بالضعف العام في التكوين النفسي للإنسان ولقد أشارت بعض الآيات الكريمات إلى بعض تلك المظاهر الكوينية كما يلي :

١ ــ ضعف متدرج في بنية العظام التي تمثل الهيكل الأساسي لانتصاب القامة وقوتها . . كما في قوله تعالى حكاية لمناجاة زكريا لربه نداء خفيا سرا :

١ ــ سورة غافر الآية ٦٧

« قَالَ رَبِّ إِنّي وَهَنَ العَظْمُ مِني وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْبا . . . » . (١)

٢ ـ ضياع كثير من المعلومات (٢) لضعف الترابط بين الخلايا العصبية المركزية إلى جانب ضعف الاتصال بالبيئة المحيطة لوهن بعض الحواس كالسمع والبصر . . ويشير القرآن إلى هذه المرحلة في سورة الحج آخر الآية الخامسة :

« وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدّ إلى أَرْذَل العُمُر لِكَيْلا يَعْلَم مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئا . . . » . (٣)

٣ ـ ضعف في الإنجاب وما يتصل به كما في قوله تعالى حكاية عن زكريا وقد بلغ به الكبر غايته في سورة مريم :

« قَالَ رَبِّ أَنّى يَكُونُ لي غُلامٌ وَكَانَت امْرَأَتي عاقِراً وَقَدْ بَلَغتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّا ، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَليّ هَيّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » . (٤)

فالشيخوخة مدعاة للضعف الجسمي العام ـ وبذلك يتأثر الإنجاب ولكن الله الخالق هو على كل شيء قدير . . ويؤكد هذا المعنى في ضعف الشيخوخة عموماً ، وجود خصوصيات يهبها

---

١ ـ سورة مريم الآية ٤ .
٢ ـ الهاشمى : د. عبد الحميد (علم النفس التكوينى) ص ٣٥٥ـ٣٥٨ .
٣ ـ سورة الحج الآية ٥ .
٤ ـ سورة مريم الآيتان (٨و٩) .

الله لمن يشاء من عباده وقد كان منهم إبراهيم عليه السلام حيث ذكر القرآن حكاية عنه في سورة إبراهيم :

« الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء » . (١)

● **القرآن ومسيرة الحياة الدنيا :**

إنها الحياة الإنسانية في هذه الدنيا ــ زواج بين الرجل والمرأة ليكون حمل الجنين في رحم الأم ثم ولادة ثم مهد وطفولة . ثم فتوة وشباب ررشد ــ فزواج وإنجاب وذرية وخلال ذلك كهولة فشيخوخة ثم وفاة هي انتقال إلى حياة هي الحياة الباقية :

ما طار طير وارتفـــع إلا كمـــا طـــار وقع (٢)

ولقد قدم القرآن خطاً بيانياً ليرسم مسيرة الحياة الدنيا التي تبدأ من ضعف عام . . . ثم إلى قوة في شتى أبعاد التكوين ثم من بعد ذلك ضعف :

« اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرِ » . (٣)

ومرحلة الشيخوخة رغم ضعفها التكويني العام فإنها إن كانت مع سلامة العقيدة المسلمة لله تعالى والصالحة في سلوكها ، والراضية

---

١ ــ سورة ابراهيم الآية ٣٩ ·
٢ ــ الهاشمي ــ التكوين ــ ط ٤ ص ٢٧١ ·
٣ ــ سورة الروم الآية ٥٤ ·

الهادئة فإنها مرحلة مباركة وسعيدة لأنها تفسح المجال للإنسان المؤمن لمزيد من العمل الصالح عقيدة وعبادة وخلقا وسلوكا . . ويحكي القرآن الكريم الخالد قصة حياة الإنسان على وجه هذا الكوكب الأرضي فيقول :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخا وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّى وَلَعَلَّكُم تَعْقِلُون . هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون » . (١)

كما يقدم القرآن لنا مشهداً تصورياً صادقاً منتزعاً مما يشاهده الإنسان الحي من المظاهر الكونية بما يصور حياة الإنسان في مسيرتها :

« إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاة الدُّنيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرض مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَام

---

١ ـ سورة غافر الآيتان (٦٧و٦٨) .

حتّى إذَا أخذَت الأرْضُ زُخرُفها وَازّيّنت وَظَنّ أهلُها أنهُم قادرُونَ عَليْها أتاها أمرُنا ليلاً أوْ نهاراً فجعَلناها حَصيداً كأنْ لَمْ تغن بالأمس كذَلِكَ نُفصّلُ الآيات لِقوْمٍ يتفكّرُون ، واللهُ يَدعُو إلى دَار السّلام ويَهدي مَنْ يَشاءُ إلى صرَاطٍ مُستَقيم » . (٢)

---

١ – سورة يونس الآيتان (٢٤و٢٥) .

● **قراءة علمية هادفة :**

ما الإنسان في نظر أهل المادة ؟ (٣)

إذا جئنا بإنسان وزنه حوالي (٧٠) سبعين كيلو غراماً وأغفلنا النظر عن كرامته وتكوينه وجدنا بدنه يحتوي على المواد التالية :

دهن يكفي لصنع سبع قطع من الصابون .

كربون يكفي لصنع سبعة أقلام رصاص .

فسفور يكفي لصناعة (١٢٠) رأساً لعمود ثقاب .

ملح مغنيسيوم يكفي جرعة واحدة لمادة مسهلة .

حديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .

جير يكفي لتبييض بيت الدجاج .

كبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث .

ماء مقداره عشر جالونات .

وهذه المواد تشترى من الأسواق بما يعادل بضعة دولارات .

صحيح يقول الماديون أن الإنسان يمتاز بالعقل . ولكن العقل عند الماديين – يفرزه المخ . . كما تفرز الكبد مادة صفراء . حيث لا يؤمنون بروح إنسانية هي نفخة من الله تعالى . .

---

١ ـ الغزالي : محمد (نظرات في القرآن) ص ٥٨ .

الفصـــل الثــالث

(شخصية الانسان فى القرآن)

- من أنت أيها الإنسان ؟!
- الإنسان طيب الأصل .
- الصفات الإيجابية للإنسان .

وحدة الأصل – احتفاء بمقدم – نفخ فيه من روح الله – احترام الحياة الإنسانية – الإنسان خليفة الله – تكريم الإنسان – يحمل الفطرة المؤمنة – أحسن صورة – أحسن تقويم – استعداده للبيان – قابلية للتعلم – استعداد للمسئولية .

- صفات سلبية :

ضعف إنساني – العجلة – كفور – قتور – طغيان – هلوع – كنود – موجز القول .

- فائدة لغوية .

● **من أنت أيها الانسان ؟! :**

لعل الإنسان ومنذ عهده بالحياة على وجه هذا الكوكب الأرضي قد حاول أن يفهم من هو؟ وممّ يتكون ؟ وكيف ينمو جسمه وإدراكه ؟ وكيف يحيا . . ؟ ثم ما هي صلته بالكون . . ؟ إنها أسئلة مهمة تتعدد أشكالها وتختلف أهدافها ولكنها جميعاً محاولةٌ من الإنسان ليعرف نفسه وأن يعرف الآخرين من بني نوعه - وقديماً كانت الحكمة (إعرف نفسك) دليل التقدم الفكري للإنسان .

ولقد حاول العلماء في تاريخهم المتسلسل الطويل وفي شتّى مجالات المعرفة ومناهجها أن يقدموا أجوبة تقترب أو تبتعد عن الوصول إلى فهم (حقيقة) التكوين الإنساني .

وأنه لمن المنجزات العامية الأولى منذ وعي الإنسان لحياته التفريق بين (الإنسان) والمادة الجامدة - وإدراك الفروق بين النبات والحيوان الأبكم والإنسان . ولقد لفت الانتباه نظره إلى نفسه بالمقارنة مع ما حوله بما يتميز به من نطق وعقل وإدراك وانفعالات وأهم من ذلك أنه يشعر بنفسه ويحسّ بوجوده ويدرك ما يعتريه من تغيرات في سائر مجالات حياته خلال مراحل الحياة النامية والمتهدمة : .

ولكن عندما قصد الفكر البشري دراسة (الإنسان) في ذاته - في حقيقته وكنهه وجوهره اختلفت الآراء الفلسفية وتعددت مذاهب الفلاسفة والعلماء النظريين . واختلطت الأفكار العلمية والفلسفية والنظريات الافتراضية وعاشت الدراسات النفسية قروناً في هذا الخضم المتموج حتّى القرن الأخير حين

كان خيراً لدراسة النفس أن تنفصل عن الفلسفة وأن تستقل شيئاً فشيئاً بمناهجها ذوات الطابع العلمي الذي أفاد (علم النفس) في الوصول إلى غير قليل من التطبيقات العملية الناجحة في مجالات التربية والتعليم والاجتماع والطب والفن والإعلام . ولكن الفهم العام (للإنسان) ظل يعاني من قصور أو تشويه في معرفة النفس الإنسانية كما سنرى ذلك عما قريب(١) .

● **الانسان طيب الأصل :**

الإنسان (كما تقدم) في خلقه الأصلي في شخصية آدم . وكما هو في تكوينه الحالي في أجياله المتعاقبة مكون من مصدرين : مصدر أرضي ترابي مادي محسوس ومصدر روحي هو نفخة من روح الله .

هذا التكوين المتزوج يجعله على الرغم من عناصره الماديةالأرضية يمشي منتصب القامة يهفو إلى فوق بنظره وتفكيره . ويسمو إلى أعلى ببحثه عن خالقه ــ ويميل إلى الخير والصدق والأمانة والإحسان .

وأصل الإنسان هو آدم أبو البشر عليه السلام إنسان سوي يحب الخير ويؤمن بالله ــ وهو طيب القلب لا يحمل حقداً ــ وحتى عندما أخطأ في لحظات ضعفه وعصى ربه وأكل ما نهاه عنه عاد إليه تائباً واعترف بذنبه مستغفراً ــ ولقد تاب الله عليه . فالإنسان طيب الأصل نقي السجية سليم الفطرة قويم الكينونة .

---

١ ــ العقاد : عباس محمود العقاد (موسوعة عباس محمود العقاد الاسلامية) المجلد الرابع (الانسان فى القرآن) ص ٣٦٨ــ٣٧٥ الانسان فى علوم النفس والاخلاق .

● **الصفات الايجابية للانسان :**

إن الصفات الإيجابية الطيبة هي صفات أساسية في النوع الإنساني ــ أما صفات الشر والهبوط فهي طارئة يمكن تغييرها .

كما أن الصفات الإيجابية الحسنة هي عامة مشتركة بين أفراد الإنسانية على وجه العموم في أجيالها المتتابعة وأهم تلك الصفات ما يلي :

١ ــ وحدة الأصل :

فآدم عليه السلام هو الإنسان الأول أبو البشرية ظهر على هذا الكوكب الأرضي وقد خلقه الله بيديه . وفي الوحدة عوامل المساواة الإنسانية العامة ــ كما فيها بيان للفكر العالمي للقرآن بعيداً عن الأجناس واللغات والألوان والمواقع الأرضية وفي آية واحدة هي افتتاح لسورة النساء تتجلى هذه الصفة الأساسية بما يلي :

(أ) نداء عام للناس جميعاً في كل جيل ومكان .

(ب) دعوة الناس إلى الله خالقهم عبادة وتقوى .

(ج) الناس كلهم من نفس واحدة هي آدم أبوهم .

(د) ومن الأصل كانت زوجته حواء مساوية له في كل الحقوق والمؤهلات الإنسانية تكريماً للزوجة وتلك هي الخلية الزوجية الأولى .

(هـ) ومن هذين الزوجين كان الأبناء رجالا ونساء فلا فروق في الأصل سمواً وإنما في مجال الوظيفة ومدى الاستعداد .

إنها الأسرة الإنسانية كلها بينها القربى والرحم – ومقرها الأرض كلها لتمثل المجتمع الأنساني وكانت حكمة الله أنه لم يخلق أفراد الإنسان رجالا ونســـاء دفعة واحدة جميعاً . وذلك لوحدة الأصل وعدم قيام أصول متفرقة . ولأهمية تعليمها مبدأ التدرج والنمو – ولأهمية وجود عوامل القربى والرحم التي يسأل الله عنها رعاية وإحساناً .

والآية هي قوله تعالى :

« يا أَيُّها النّاسُ اتّقوا رَبّكُم الذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ منْها زَوْجها وَبثّ منهُما رجالاً كثِيراً وَنساءً واتّقوا اللهَ الذي تَساءَلونَ بهِ وَالأَرْحامَ إنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكم رَقِيباً »(١) .

٢ – احتفاء خاص بمقدم الإنسان :

حين أعلن الله خالقه للملائكة أنه خالق بشراً – وهذا الإعلان فيه كل تكريم – لا سيما وقد اقترن هذا الإعلان بأمر الملائكة أن تسجد لهذا البشر . فهذا إعلان هادف لتكريم الإنسان ولقد ورد ذكر هذا الإعلان بمقدم الإنسان عند خلقه وكونه خليفة مقترناً ذلك بأمر الله للملائكة بالسجود في مواضع منها سورة الحجر المكية :

« وَإِذْ قالَ رَبُّكَ للملائكَةِ إنّي خالق بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، فإذا سَوّيْتُهُ وَنفخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحي فَقَعُوا لهُ ساجدين»(٢) .

١ – سورة النساء آية ١ .
٢ – سورة الحجر آية ٢٨ – ٢٩ .

ثم في سورة ص المكية :

« إذْ قالَ رَبُكَ للملائكَةِ إنّي خالقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فاذَا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحي فقَعُوا لهُ ساجِدينَ »(١) .

ثم في سورة البقرة المدنية :

وفيها إعلان عن خلافة الإنسان في الأرض . وأن تسجد الملائكة لذلك الخليفة :

« وَإذْ قالَ رَبُّكَ للملائكَةِ إنّي جاعلٌ في الأرْضِ خَلِيفَة . . » (٢) .

ثم قوله تعالى :

« وإذْ قُلْنا للملائِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ . . »(٣) .

٣ ـ تخصيص الله للإنسان بأنه المخلوق الذي نفخ فيه من روحه . وفي ذلك إشارة إلى طهارة أصله . وسمو معدنه وسلامة فطرته :

كما ورد أن خلق الإنسان كان بيدي الله تعالى وذلك في قوله تعالى :

« فإذَا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحي . . »(٤) .

---

١ ـ سورة ص الايتان (٧١ـ٧٢) . ٢ ـ سورة البقرة آية ٢٠ .
٣ ـ سورة البقرة آية ٢٤ . ٤ ـ سورة الحجر آية ٢٩ .

وقوله تعالى :

« قالَ يَا إبْليسُ ما منَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لمَا خلَقْتُ بيَديّ أسْتَكْبرْتَ أمْ كُنْتَ منَ العَالِين »(١) .

٤ ــ احترام الحياة الإنسانية :

إن الله قد وهب الإنسان حصانة في حفظ الحياة مهما كان جنسه أو لونه أو لغته أو مقر إقامته أو مرحلة نموه فالله هــو واهب الحياة .

لذا قد صرح القرآن أن من قتل (نفساً) هكذا بإطلاق (النفس) ليشمل كل فرد إنساني بغير نفس أو فساد أي بغير قصاص لقتل فكأنما قتل الناس جميعاً . لأن حق الحياة حق إنساني أصيل وقتل واحد هو إنكار لهذا الحق في الحياة كما أن حماية الحياة لفرد واحد هوحماية لنفوس الأحياء جميعاً فيقول الله تعالى :

« أنّهُ مَنْ قتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أوْ فَسَادٍ في الأرْضِ فكَأنّمَا قتَلَ النّاسَ جَمِيعَا ، ومَنْ أحْيَاهَا فكَأنّمَا أحْيَا النّاسَ جَمِيعاً . . . » (٢)

٥ ــ الإنسان خليفة الله في الأرض :

« وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيفَةً . . . » (٣)

---

١ ــ سورة ص آية ٧٥ .
٢ ــ سورة المائدة آية ٣٢ .
٣ ــ سورة البقرة آية ٣٠ .

وخلافة الإنسان لله في الأرض هي خلافة تنظيم وتدبير وخلافة زراعة وعمران . وخلافة عدل وإحسان ورحمة . فالله قد أنشأ الإنسان ليعمر الأرض خيرا وليظل الإنسان على صلة دائمة بالله عبادة واستغفاراً وتوبة ، قال تعالى :

« . . . هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُم فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ»(١)

وهذه الخلافة ليست لآدم عليه السلام وحده بل هي خلافة متوارثة لأفراد الإنسانية تناسلا جيلا من بعد جيل خلفاء في الأرض وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

« أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون » . (٢)

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي وهبه الله طاقات عقلية وعملية للاستفادة من كنوز الأرض وما يتصل بها لأنها جميعاً مسخرات له .

٦ ـ تكريم الإنسان على سائر الكائنات :

إنه تكريم حين أمر الله الملائكة بالسجود له . وتكريم بتسخير الأرض وما فيها وعليها وحولها من رياح وماء وبحار وجبال وكواكب .فهذه القوى الكونية مسخرة لتكون ملائمة لنمو الحياة الانسانية

---

١ ـ سورة هود آية ٦١ .
٢ ـ سورة النمل آية ٦٢ .

كما أن التسخير يتضمن ما أودع الله في الإنسان من استعدادات عقلية وعملية لاستغلال هذه المسخرات لخير الحياة الدنيا . وهذا ما لم يحظ به غير الإنسان من الكائنات الحية الأخرى . قال تعالى :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُم في البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ . وَفَضَّلْنَاهُم علَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » . (١)

٧ – يحمل الفطرة المؤمنة :

إن الإنسان في أصل فطرته يحمل في أعماقها مبدأ الإيمان بالله ربّاً – وسيظل كذلك حتى تنحرف تلك الفطرة بعامل إفساد أو انحراف ، فالله وهو الخالق للناس جميعاً قد أخذ منهم ميثاقاً وهم في عالم الذر ذرية وسألهم : ألست بربكم ؟ . فاعترفوا له بالربوبية والعبودية والوحدانية . (٢)

والعلم الحديث للسلالات الوراثية يؤكد أن خلايا الوراثة التي تتضمن السجل العام للإنسان قد يتجمع منها مئات آلاف من الملايين من الناس بما لا يزيد عن حجم سنتيمتر مكعب واحد – كما أن هذا السؤال الإلهي لبني آدم من ظهورهم في الأشهاد على الإيمان بالله هو عهد الفطرة المغروزة في كل إنسان مثـــل فطرته (ميل نحو الأكل) (ميل نحو طلب الأمن) وغيرها من الدوافع

---

١ – سورة الاسراء آية ٧٠ .

٢ – الهاشمي : د. عبد الحميد (حي بن يقضان) دراسة نفسية –

الفطرية الإنعانية الأولية ثم تكون الرسل والرسالات لتصحيح الإنحراف وبيان التفصيلات والآية تقرر الطبيعة الإيمانية في النفوس الإنسانية السليمة :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ » . (١)

٨ ـ أحسن صورة :

الإنسان وقد خلقه الله بيديه جعل صورته الخاقية الجسدية في غاية الكمال بالنسبة لبقية الأحياء في الأرض . فالتكوين الإنساني في أجهزته الظاهرية والداخلية يمثل كمال الصنعة ودقة الإحكام في تناسق الوظائف وتوازن الأجهزة والأعضاء . ويؤكد الله هذه الحقيقة التكوينية حين يقرنها مع خلق السموات وما فيها من نجوم وكواكب هي زينة الناظرين دقة وإحكاما . ومع خلق الأرض التي فيها آيات الدقة نظاماً وتقويماً وذلك كله حق وكمال وإليكم قوله تعالى :

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ ، وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم وَإِلَيْهِ المَصِير » . (٢)

٩ ـ أحسن تقويم :

الإنسان هو المخلوق المختار من بين سائر الكائنات لذا فهو في أحسن تقويم تكويناً جسدياً وعضوياً فقامته تنتصب معتدلة إلى أعلى دون غيره من الأحياء .

---

١ ـ سورة الاعراف آية ١٧٢ ·

٢ ـ سورة التغابن الآية ٢ ·

ويده أعظم آلة عرفها العلم وكل تقدم هو نتيجة دقة اليد الإنسانية ومرونتها – وجهازه العصبي هو أعقد وأدق جهاز عصبي لمخلوق ، أما حنجرته فأجمل آلة موسيقية وبنانه صياغة فريدة لا يتماثل بها فردان إنسانيان ولو كانا توأمين متماثلين .

ولقد أكد القرآن هذه الحقيقة التكوينية النفسية بعد أن أقسم الله تعالى بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين . فقال تعالى :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . (١)

١٠– استعداده للبيان :

يتميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية بفطرته الإدراكية الذكية التي تتجلى بمقدرته في (البيان) والبيان يشمل استعداد الإنسان لبيان مكنونات نفسه وشعوره عن طريق الإشارة والحركات والقسمات والملامح – كما يشمل البيان الكلامي اللغوي الذي يستطيع عن طريقه بيان ما في نفسه تعبيراً . واستبيان ما لدى غيره سماعاً وسؤالا ، وبيان ما لديه إلى غيره من الأجيال كتابة وتسجيلا .

وقد أورد ذلك القرآن في أسلوب حكيم ، حين ذكر خلق الإنسان وأن خالقه (الرحمن) بكل ما تحمله صفة (الرحمة الإلهية) في خلق الإنسان وتربيته لقيامه بوظائفه من حيث تعليم القرآن الذي هو نهج الحياة الإنسانية في توجيه الإنسان بحواسه وإدراكه وتفكيره نحو الكون ليصل منه إلى الله الخالق للكون والذي سخر له الكون لضمان حياته وتوفير الرخاء له فيها عمراناً ثم يذكر . .

١ – سورة التين الآية ٤ .

خلق الإنسان وقد علمه البيان ووضعه في (مدرسة الكون) وما فيها من مخلوقات كالشمس والقمر والنجم والشجر والسماء وما فيها والأرض وما بها وعليها . ويسجل القرآن الكريم هذه الحقيقة النفسية في استعداد الإنسان للبيان وفي ذكر مجال بنيانه بالآيات :

« الرَّحْمنُ ، عَلَّمَ القُرْآنَ ، خَلَقَ الإنْسَانَ ، عَلَّمَهُ البَيَان ، الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ، وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزانَ » . (١)

١١ـ قابليته للتعلم :

يشير القرآن إلى ما يتميز به الإنسان في استعداده للتعلم الذي يعتبر إحدى خصائص الإنسان الكبرى في حياته النفسية . وقابلية الإنسان للتعلم تتفاعل فيها عدة عوامل فطرية أولية وعوامل مكتسبة بيئية وهي كما يلي مجتمعة :

(أ) جهاز عصبي إنساني يمتاز بدقته العظيمة وتعقده المتشابك ـ حواس دقيقة متعاونة فعند ضعف إحداها تحاول بقية الحواس تعويض ما يمكن تعويضه ـ والحواس أدوات اتصال بين (نفس الإنسان) وما حولها من مؤثرات .

(ب) ذكاء إنساني مبكر ومتنام ومتجدد ـ وأكثرية أفراد الانسان يتمتعون بذكاء متوسط وما فوقه بدرجات ذوات فروق فردية .

(ج) قدرة خاصة للإنسان في إنجاز الرمزية التي نجح فيها آدم عليه السلام ـ وهذه الرمزية هي التي تضع بين الشيء

١ ـ سورة الرحمن الآيات (١ـ٧)

أو الشخص وبين ما يطلق عليه من أسماء صلة يفهمها الإنسان وبهذه الرمزية ينقل أفكاره ومتطلباته إلى غيره . والرمزية أساس اللغة بشتى مراحلها ومستوياتها الإرشادية أو التصويرية أو الكلامية أو الأبجدية الكتابية .

(د) ما وهب الله الإنسان من قدرات عقلية عليا من انتباه وتذكر وتصور وتخيل وحفظ .

(هـ) مجتمع إنساني مشجع للإنسان على التقليد والتنشئة ونقل معارفه وعلومه من الكبار الراشدين إلى الصغار الناشئين ومن جيل إلى جيل ، ومن مكان إلى آخر .

هذه الحقائق النفسية التي وصلت إليها الدراسات الحديثة في التعلم الإنساني . أشارت إليها آيات ثلاث في أوائل سورة البقرة حين أخبر الله تعالى الملائكة بجعل (الإنسان) خليفة له في الأرض – وأن هذا الاستخلاف قائم على أهلية الإنسان له . ويتم ذلك حسب السياق .

– حين جعل الله بيان قابلية الإنسان للتعلم دليلا على أهليته .

– وحين كان الله هو المعلم الأول كما هو المربي الأول للإنسان .

– وكان منهاج التعليم تعليم الأسماء وتعلقها بالمسميات فهماً مع حفظ تلك الأسماء .

– بيان أن الملائكة لم يستطيعوا ذلك لعدم حاجتهم إليه .

– أجرى الله تعالى اختباراً للإنسان على ما تعلم من قبل .

– نجاح تام للإنسان – وفي هذا بيان حكمة الله في استخلاف الإنسان وفي تكريمه ثم بالتالي مسئوليته وتكليفه . . قال تعالى :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمَ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِم فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُم إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُم تَكْتُمُونَ » . (١)

١٢ــ استعداده للمسئولية الإنسانية :

الإنسان هو الكائن الحي الذي ينمو متدرجاً من قبل ولادته بأشهر ويتابع ذلك النمو العقلي الواعي بعد ولادته سنوات حتى مرحلة الرشد ، وهذا النمو الإدراكي الشعوري على الرغم من أنه قد يكون بطيئاً إلا أنه قوي وعميق وأصيل . وهذا ما يجعل الإنسان هو الكائن (١) المسئول المكلف الذي عليه أن يلتزم بما يفكر ويمسك ويتعامل . وأن يتحمل نتائج ذلك إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً وهذه حقيقة نفسية كبرى في استعداد الإنسان لتحمل المسئولية ومقدرته في القيام بها ، لأنه :

أولا ــ إنسان ليس مادة فقط تهبط به دائماً نحو الانحدار والإسفاف بل هو أيضاً نفخة من روح الله تسمو به إلى الحق

---

١ ــ سورة البقرة الآيات (٣١و٣٢و٣٣) .

٢ ــ المبارك : محمد (نظام الاسلام) ص ٨٣ ــ دار الفكر ــ بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م ط ١ .

والخير والفضيلة وتسمو به نحو التوبة إذا ما أصابه ضعف أو وهن ليعود متسامياً طاهراً .

ثانياً – لدى الإنسان فطرة أولية تدفعه للإيمان بالله ومحاسبة نفسه على ما يعمل .

ثالثاً – في الإنسان ذكاء مدرك يبين له وجوه الخير والشر بوجه عام وعاطفة شفافة إذ الخير ما اطمأن له القلب والشر ما حاك في النفس وتردد في الصدر .

رابعاً – وفوق كل ما تقدم لم يتركه الله إلى ما وهبه من فطرة سليمة من ذكاء مدرك يميز ، بل أرسل له معلمين مرشدين من المرسلين صاحبوا الإنسانية في تاريخها الطويل في سلسلة من الرسل قص القرآن عن بعضهم ولم يقصص عن الآخرين شيئاً..فقال عنهم في بيان الحكمة تأكيداً للعدالة الإلهية وتبياناً للمسئولية الإنسانية :

« رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً » (٢)

وبعد رسوله محمد بن عبد الله خاتم المرسلين . . كان العلماء ورثة للأنبياء وهم رجال تربية وتعليم وإرشاد . ويقرر القرآن هذه الحقيقة النفسية الكبرى بأسلوب هادئ حين أقسم بالنفس الإنسانية لسموها مقروناً ذلك بالقسم بمشاهد كونية في دوام الحركة ودقة النظام في الشمس والقمر وما يتصل بهما من نهار وليل ومع السماء والأرض ثم في تسوية النفس وتكوينها

١ – سورة النساء آية ١٦٥ .

بنظام دقيق سوي متكامل في النفس الإنسانية ومسئوليتها فقال تعالى :

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » . (١)

ولقد أثبتت هذه الحقيقة الإنسانية الدراسات النفسية حين تحررت من التزمت للجبرية النفسية التي نادى بها – فرويد – . أو الإباحية المطلقة التي تنادي بها الفكرة المادية الجبرية الجدلية . فكلا الجبريتين إهدار للوعي الإنساني وإنكار للمسئولية النفسية الشعورية المدركة . . وهذا هو البحث النفسي بعيداً عن فرضيات لا تزال في معترك التخمين . فالمسئولية النفسية تؤكد كرامة الإنسان كما تؤكد يقظة مواهبه الإدراكية ونشاط وعيه الشعوري الحي .

لذا فإن القرآن يؤكد هذه الحقيقة النفسية في مواضع متفرقة في سور متعددة مثل :

« إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » . (٢)

والآية القرآنية :

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » . (٣)

---

١ ـ سورة الشمس الآيات (٧ـ١٠) .
٢ ـ سورة الانسان الآيتان (٢و٣) .
٣ ـ سورة المدثر الآية ٣٨ .

وأيضاً قوله تعالى :

« وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . (١)

وتتجسد هذه المسئولية . في عملية التغيير نحو الحسن والأحسن والكمال . . بعيداً عن الخطأ والهبوط والانحدار وفي الآية الكريمة ، من سورة الرعد :

« إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم . . . » . (٢)

بل إن الإنسان مسؤول مسئولية مباشرة عما تتلقاه حواسه حين يعيش في بيئة فاسدة أو مجتمع منحرف إذ عليه أن يعمل على صلاح البيئة والمجتمع أو أن يغير ذلك إلى مجتمع صالح من المعارف والأصدقاء إلى جانب مسئولية الإنسان في كل فكرة يتبناها :

« وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » (٣) .

● صفات سلبية للانسان فى القرآن :

ليس (الإنسان) ملاكاً كله طهر وخير واستقامة دائماً وأبداً . فليست شخصيته مجمعاً للصفات الإيجابية المتسامية التي تؤكد كرامته وفضله وأهليته لخلافة الله في الأرض . بل فيه أيضاً من نقاط الضعف والوهن ما قد تنحدر به إلى أدنى المستويات في الحياة الحيوانية . إذ أن الإنسان ليست وظيفته في الحياة والكون مجرد الأكل والشرب والجنس والنوم .

---

١ ـ سورة البلد الآية ١٠ .
٢ ـ سورة الرعد الآية ١١ .
٣ ـ سورة الاسراء الآية ٣٦ .

لتكون هذه الميول النفسية والوظائف السلوكية هي كل حياة الإنسان لأنها إن كانت كذلك فهناك أنواع من الحيوان تستطيع أن تأكل وتشرب وتشبع ميولها الجنسية وتنام مع ما لها من دقة الحواس المادية سمعاً وبصراً وشماً ما يفوق الإنسان بدرجات كبرى .

ولكن الإنسان فوق جانبه المادي الحيواني العضوي هو نفخة من روح الله ، إنه يمتاز بالإيمان بالله ويمتاز بفكرة الحق والخير والعمل الصالح . وبذلك كان الإنسان سيد الكائنات وكان المكرم والمفضل وقد أمرت الملائكة بالسجود له تقديراً واحتراماً .

فإذا فقد الإنسان هذا الجانب الروحي المؤمن فقد جوهر إنسانيته الحقة ولم يبق له منها إلا الشكل والمظهر والقالب وهذا لا يغني عن الحقيقة الأساسية للنفس الإنسانية شيئا . ولهذا أطلق القرآن في عدة مواطن لفظ (الدواب) على الذين انحرفوا عن الإيمان الصادق الخالص . ونقضوا العهد الإلهي الفطري الذي تميز به أبناء آدم ذرية متسلسلة . نعم ان لفظ (الدواب) يشمل لغة كل ما يدب على الأرض مما يمشي ويطير ويسبح من جميع الحيوان وفيه الإنسان ، بيد أن القرآن حين يطلق لفظ (الدواب) على فئة من الناس وهم الكافرون فيه بيان تخصصي ببروز السمات الحيوانية البهيمية الدنيا لا سيما إذا أكد ذلك القرآن فيهم ووصفهم بأنهم (شر الدواب) فالحيوان البحت البهيم هو الذي لا يدرك معنى الإيمان ولا أهميته . . إذ ليس لديه سمو روحي نبيل بل يعيش في دائرة مغلقة متكررة مع أجياله المتعاقبة ولادة وأكلا وتناسلا ومماتاً . ونجد ذلك في الآية القرآنية التالية :

« إنّ شرّ الدّوابّ عنْد الله الذينَ كفرُوا فهُم لا يؤْمنُونَ ، الذينَ عاهَدْت مِنْهم ثمَّ ينْقُضُونَ عهدهم في كلّ مرَّةٍ وَهم لاَ يتّقُونَ »(١) .

وقوله تعالى أيضاً :

« إنّ شرَّ الدّوَابّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لاَ يعْقِلُونَ ، وَلوْ عَلمَ اللهُ فِيهمْ خيراً لأسْمعهُم وَلوْ أسْمَعَهُم لتَوَلّوا وَهمْ مُعْرضُون ، يا أَيّها الذينَ آمَنُوا استَجيبُوا لله وَللرّسُولِ إذا دَعاكم لِمَا يُحْييكُم واعْلمُوا أنَّ اللهَ يَحُولُ بينَ المرْءِ وَقَلْبِهِ وإنّهُ إليْه تُحْشَرُون »(٢) .

وتأكيداً لهذه الحقيقة النفسية التي تجعل عدم الإيمان بالله إنحرافاً عن سلامة النفس الإنسانية وسموها . فإن الإنسان إذا فقد الصلة بالله إيماناً وعبادة فإن غير قليل من صفات الإيجابية الأصيلة كخلافته لله في الأرض وقابليته للتعلم والنمو العلمي المتصاعد . تنقلب عليه سلاحاً مدمراً للنفوس الإنسانية ومجال خلافتها الأرض كلها .

فإن التقدم العلمي التطبيقي وحتى في عصور غزو الفضاء وتفجير الذرة ينقلب تهديداً حقيقياً بالخراب الشامل ويجعل الحياة خوفاً مزمناً على العالم والجاهل . والمحارب والمسالم . والغالب والمغلوب ويكفي أن نعلم أن مخزون الإنسانية من القنابل والصواريخ

١ – سورة الانفال الآيتان (٥٥–٥٦) .
٢ – سورة الانفال الآيتان (٢٢–٢٤) .

النووية وأمثالها يكفي لتدمير الأرض ومن عليها من الكائنات أكثر من عشرين مرة . .

فأين كرامة الإنسان . . وأين خلافته في الأرض والله إنما يريدها خلافة أمن وعمران ورخاء ؟!

لذا فإن للإنسان صفات سلبية . قد تكون كامنة تتحين الفرص للظهور ـ وقد تكون طارئة يمكن التغلب عليها بحسن التوجيه وقد تكون غير شاملة بيد أنها جميعاً يستطيع الإيمان بالله حيث ترعاه التنشئة السليمة وتنمو به التربية الصحيحة أن يجعل من الفرد البشري (إنساناً متكاملا فاضلا) وسنقدم عشراً من تلك الصفات السلبية للإنسان وهي : الضعف والعجلة والكفر والتقتير والطغيان والهلع والكنود والخسران والغرور وحب الجدل وفيما يلي شرح تحليلي لأكثرها(1) :

١ ـ ضعف انساني :

الإنسان ضعيف في تكوينه العام وهذه حقيقة نفسية يحسها الإنسان في قرارة تكوينه بدءاً من مسيرة الحياة طفلا وهو عالة على غيره لضمان حياته . ثم يستشعر ذلك الضعف في مراحل الفتوة والقوة والرشد في فترات الإرهاق والمرض والملل والفشل . . ويزداد ذلك الشعور بالضعف الإنساني في مراحل خريف العمر كهولة وشيخوخة . وصدق الله العظيم :

« اللهُ الذي خلَقكُم مِنْ ضَعْفٍ ثمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوّةً ثمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ العليمُ القَدِير »(2) .

١ ـ العقاد : عباس محمود العقاد (موسوعته الاسلامية) المجلد الرابع (الانسان فى القرآن) ص ٢٢٨ـ٢٣٠ .

٢ ـ سورة الروم الآية ٥٤ .

ويتأكد هذا المعنى في الضعف الإنساني العام بالآية التالية :

« **يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُم وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً** »(١) .

بيد أن هذا الضعف يستطيع الإنسان العاقل المؤمن أن يجعله سبيلا لاستمداد القوة من مصدرها الأصيل . فالإنسان ضعيف أمام الله خالقه القوي ورازقه المتين فالإيمان بالله قوة يكافح بها الإنسان ضعفه حين يجعل صلته بالله سنداً دائما ومعيناً ووكيلا ومرجعاً والمنهج الإلهي هو الذي يجعل الإنسان على الرغم من ضعفه أمام بعض ميوله الجامحة ورغباته الطائشة يستخدم عقله وإرادته في الضبط الذاتي ويجعل من الإيمان بالله رقيباً على عقله وإرادته ودوافعه – فلا يذل أمام هوى ولا يقع صريع الشهوات :

وكذلك يكافح ضعفه الجسمي بالتماس العلم وتطبيقاته الإلهية والطب والدواء السليم سائلا ربه القوة والشفاء .

٢ – العجلة :

العجلة إحدى خصائص الإنسان تدفعه ليتطلع دائماً إلى ما بعد اللحظة القائمة لما سيكون من أعمال أو ما هو كائن فعلا في اللحظات القادمات مباشرة إنه الإنسان يريد أن يمتد طويلا ببصره بأسرع ما يكون الإمتداد إلى ما سيأتي ليقطف ثماره ولو قبل أوانه . كذلك صفة الإنسان عموماً :

« **خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ** »(٢) .

ولهذه العجلة في كثير من الحالات آثار سلبية . لأنها في مجال الأعمال السلوكية والإدارية كثيراً ما توقع الإنسان في قصور بإعداد التخطيط وإرساء القواعد والمقدمات .

---

١ – سورة النساء آية ٢٨ . ٢ – سورة الانبياء آية ٣٧ .

وللعجلة أخطارها في مجال التفكير والتدبير لأنها قد تؤدي إلى اتخاذ قررات خاطئة .

أما في مجال الانفعالات والعواطف الإنسانية فكم أثارت العجلة من تعبيرات سلوكية انفعالية متطرفة أو حادة أو غير منطقية في عدوان أو قطيعة .

وكانت نتيجتها عند العاقل إذا أفاق ندماً وقد سبق السّيف العذل . . ولات ساعة مندم .

وقد تكون هذه التعبيرات الانفعالية في ساعات الفشل أو الاحباط أو في مواجهة الشدائد والأزمات سبباً في كره الحياة أصلا ودعاء الإنسان على نفسه أو على أهله وذريته بالويل والثبور . وصدق الله العظيم :

« وَيَدْعُ الإنْسَانُ بالشّرّ دُعاءهُ بالخَيْر وكانَ الإنْسَانُ عَجُولاً »(١) .

بيد أن الله تعالى وهو الرحيم بهذا الإنسان ـ يعلم اندفاعات الإنسان العجلة نحو شر نفسه فيتجاوز عنها :

« وَلوْ يُعجّلُ اللهُ للنّاسِ الشّرّ استعْجالهُم بالخَيْرِ لقُضيَ إليْهُم أجَلُهُم »(٢) .

وعلاج هذه العجلة هو الإيمان بالله تعالى وقضائه وقدره مما يبعث الطمأنينة في نفس الإنسان المؤمن الذي يفكر ويخطط ويعمل منفذاً دون استباق للنتائج قبلَ حينها . لأن الوقت جزء

---

١ ـ سورة الاسراء آية ١١ .
٢ ـ سورة يونس آية ١١ .

أساسي في تحقيق الرغبات . وحتى في ساعات الشدة والإحباط فإن المؤمن لا يتلاشى متهاوياً فيدعو على نفسه بالشر أو يوردها الهلاك تمنياً أو انتحاراً بل يواجه المواقف الصعبة بقلب صابر ونفس مطمئنة وعقل يخطط لاستئناف العمل متوكلا على الله تعالى .

٣ ـ كفـــــور :

لهذه الكلمة معنيان : كفور من كفر بالله إذا لم يكن مؤمناً ـ ومن الناس أفراد غير قليلين ينسون فضل الله عليهم خلقاً وإيجاداً وإنعاماً . فلا يفكر واحدهم إلا بجسمه يأكل ويشرب وينام فإذا صحا أشرك مع الله أرباباً لا ينفعون ولا يضرون ـ وهذا هو الكفر الشرعي اصطلاحاً حين يعبد الإنسان غير الله أو يشرك معه أحداً .

والمعنى الثاني لكلمة (كفور) بفتح الكاف من كفر الإنسان بنعمة الله إذا جحدها وسترها فهو إنسان كفور أي كافر . كما يطلق (الكافر) بهذا المعنى على الليل والبحر والوادي العظيم والسحاب المظلم والزارع(١) .

فالإنسان أيضاً كفور اذا كان في ساعة الشدة والمصائب وقد ضرب القرآن لذلك مثلاً في ركوب البحر فإذا تقاذفت الإنسان الأمواج وشارف الهلاك تذكر الله وذكره ودعاه طالباً منه العون والحماية فإذا استقر على الشاطئ ومشى على اليابسة وانجلت الشدائد نسي الله وانغمس في عيشه غارقاً في أهوائه وشهواته .

يصور القرآن الموقف النفسي للإنسان فيقول :

---

١ ـ فيروز ابادى ـ القاموس المحيط .

« وَإذَا مَسَّكُم الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُم إلى البَرِّ أعرَضتم وَكَانَ الإنسانُ كَفُورًا » . (١)

ويمثل القرآن الكريم كفران نعم الله في المجتمع بعدم شكر الله عليها ويضرب هذا المثل لحياة اجتماعية إنسانية كثيراً ما تتجدد عبره في كل جيل وكل مكان . .

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأنْعُمِ اللهِ فَأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُون » . (٢)

٤ ـ الانســان قتــور :

قتور بفتح القاف وضم التاء هو البخيل على نفسه وعلى أهله والتقتير أشد البخل والشح البغيض وهذه صفة نجدها لدى بعض الناس ـ الذي يجعل همه في الحياة الكسب وأن يجمع ويجمع دون أن يسمح لنفسه ولأهله ومجتمعه بالاستمتاع بما أنعم الله عليه . . إنه يخشى الفقر ـ ولكنه بهذا التقتير يعيش فقيرا .

نعم إن الإنسان في ميوله الفطرية حب التملك والحرص على الحيازة ولكنه يتعلم أن ينفق على نفسه وعلى أهله كما يتعلم أن ينفق على غيره من المحتاجين وهذه إحدى حكم الزكاة في الحياة الإسلامية حيث الزكاة لا تقل عن الصلاة فرضية . بل إن

---

١ ـ سورة الاسراء الآية ٦٧ . ٢ ـ سورة النحل الآية ١١٢ .

الخليفة الصديق قد قاتل الذين منعوا الزكاة على الرغم من أنهم لم ينكروا فرضية الصلاة وأداءها ـ لأن الصلاة حق الله والزكاة حق عباد الله .

ولهذا جعل الله من صفات المؤمنين حماية أنفسهم من هذه الصفة الذميمة فقال :

« وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »(١)

وقوله أيضاً :

« وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُم وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » . (٢)

وإليك أخي الإنسان المؤمن هذا التوجيه النفسي القرآني الخالد :

« لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيم » . (٣)

٥ ـ طغيان :

الطغيان هو الزيادة المتطرفة عن المستوى المقبول . وهذه صفة ذميمة منحرفة لدى بعض النفوس عندما تكون ضعيفة فقيرة تتمسكن وتتذلل وتتظاهر بالصلاح والتقوى والاستقامة فإذا جاءتها قوة أو سلطة استبدت وظلمت وتعسفت أو إذا جاءها

١ ـ سورة الحشر الآية ٩ .
٢ ـ سورة التغابن آية ١٦ .
٣ ـ سورة آل عمران الآية ٩٢ .

الغنى غدت بطرة أشرة وتفننت في سبيل الفساد والإفساد ونسيت أو تناست كل صلاح وتقوى واستقامة . وإلى ذلك تشير الآية الكريمة :

« كَلاَّ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى،أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ، إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى » . (١)

أما النفوس السليمة السوية وهي ذات اتصال دائم بالله تعالى عبادة ومراقبة فإنها تواجه الحياة بتكييف متوازن سليم .

إذا أصابها سوء أو ضائقة صبرت وتجملت وعزّت بحيث يحسبها البعيد عنها غنية ــ وهي حقاً غنية بالله تعالى عن أموال الناس وإن أصابها خير ونعمة حمدت الله تعالى وأظهرت نعم الله بالإنفاق الحكيم على نفسها ــ وعلى أهلها وأسهمت في إسعاد المجتمع من حولها وهذا قمة التكيف النفسي السليم في مواجهة تقلبات الحياة وتصرفات الأيام ويظل معها الإنسان المؤمن سعيداً في كل حال .

٦ ــ هلــــوع :

الهلع بفتح الهاء واللام هو أشد الجزع ، والهَلوع بفتح الهاء يفزع ويجزع من الشر فلا يصبر على الشدائد والأزمات ثم هو في حالات الرخاء شحيح يحرص على المال جمعاً وكنزاً حتى على نفسه وعلى ذويه . . ولقد وصف القرآن (بعض الناس) بهذه الصفة الذميمة وقد فسرها القرآن في الآية ذاتها إذ ذكر لها معنيين متفاعلين على الرغم من أنها على طرفي تطرفين ذميمين ــ هما الجزع عند مواجهة الشدائد ــ والمنع في حالات الرخاء فالإنسان الهلوع ــ هو

---

١ ــ سورة العلق الآيات (٦ــ٨) .

جزوع متهافت يتلاشى أمام الصعاب وهو نفسه منوع بخيل شحيح إذا ناله الخير . .

غير أن هذه الصفة الذميمة تلازم الإنسان المنحرف عن الإيمان بالله وغير القائم بما أوجب الله من اتباع منهجه وشرعه .

أما الإنسان المؤمن وهو يمثل التكامل الإنساني في الإلتزام بصلاته وهي صلته الدائمة مع الله . وفي التزامه بدفع الزكاة التي هي علاقته المحببة نفسياً مع أفراد مجتمعه ، إن هذا الإنسان لا تستخفه عواصف الزمن ولا تقلبات الصروف . . فهو في مواجهة الشدائد صبور بطل مغامر واثق راض بما قدر الله . . ثم هو في مواجهة الرخاء قنوع كريم شاكر لله تعالى فهو وحده واهب النعم وله الفضل حين يوفق الإنسان لعبادته وحين يجد المال الذي جعل الله فيه حقاً معلوماً للسائل والمحروم . وإليكم قوله تعالى في الآية الكريمة :

« إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ، إلاَّ المُصَلِّينَ، الذينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِم دَائِمُونَ، وَالذِينَ في أَمْوَالِهِم حَقٌّ مَعْلُومٌ، للسَّائِلِ وَالمَحْرُوم » . (١)

٧ ـ كنـــــود :

كنود بفتح الكاف هو الكافر بنعم الله وآلائه والكنود بضم الكاف يشمل عدة صفات ذميمة مترابطة متفاعلة فالكنود كافر بنعم الله عاص لأوامره لوّام لربه بخيل شحيح .

---

١ ـ سورة المعارج الآيات (١٩ـ٢٥) .

قال الله تعالى :

« إنَّ الإنْسَانَ لِربِّهِ لَكَنُود*وَإنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيد* وَإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيد » . (١)

فالإنسان الكنود هو أيضاً قتور وكفور كما تقدم في تحليل هاتين الصفتين المتقدمتين آنفاً .

● **موجــز القول :**

لقد أكد القرآن الكريم في عدة مواطن ومن عدة وجوه قيمة الإنسان وشخصيته الفريدة المتميزة عن سائر الكائنات في تكريمه وفي أهليته للاستخلاف في الأرض خلافة عمران ورخاء بما سخر الله له من خيرات الأرض وما حولها . وبما وهبه من وسائل الفكر والملاحظة والتجريب والعمل . وكل ذلك لما يتمتع به الإنسان من تبعات الاستخلاف فهو مسؤول ومكلف لأنه عاقل مدرك إلى جانب ما يحمله من ميول فطرية للإيمان وبما أرسل له من الرسل مبشرين وهادين .

وليس معنى ذلك أن الإنسان (آلة متحركة ليست لها إرادة) أو لديه حصانة كاملة في نفسه ضد الزلل والانحراف : إنه ليس ملاكاً . . وليس شيطاناً رجيماً .

فهذا الإنسان إذا عرض له طارئ أفسد فطرته أو أعشى بصيرته فإن ظل كذلك مصراً مكابراً لا يعنيه من الحياة إلا جسمه وغرائزه فإنه يخسر إنسانيته السوية وعلاجه في ذلك هو (الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح . . فذاك مصدر الصلاح والاستقامة) كما في قوله تعالى :

---

١ ـ سورة العاديات الآيات (٦ـ٨) .

« وَالعَصْرِ ، إن الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » . (١)

ثم إن الإنسان المؤمن ليس معصوماً فقد ينتابه وهن أو غفلة أو ضعف فالله قد فتح أبواب الإنابة والتوبة ليعود المؤمن إلى صفاته متجدداً أشد ما يكون الصفاء الإنساني السليم :

« وَالذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذِنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون . أولئِكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِم وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أجْرُ العَامِلِينَ » . (٢)

---

١ ـ سورة العصر .
٢ ـ سورة آل عمران الآيات ١٣٥ـ١٣٦ .

فائـــدة لغـــوية

إن كلمة (إنسان) تطلق على المذكر والمؤنث والجمع أناسى . وأما (الناس) فاسم الجمع – وأصل كلمة (إنسان) من كلمة (إنسيان) بالياء بدليل تصغيره (أنيسان) – واشتقاق كلمة إنسان من أحد اشتقاقين :

(أ) إنسان من (أنس) والهمزة أصلية من المؤانسة والألفة وقد قيل :

وما سمي الإنسان إلا لأنسه　　　وما القلب إلا أنه يتقلب

(ب) وإنسان من (نسي) من النسيان . لأنه عهد إليه فنسي والهمزة على ذلك في أوله زائدة . وقد قيل :

لا تنسى هاتيك العهود فإنما　　　سميت إنساناً لأنك ناسي

ثم إن كلمة (إنسان) كما تطلق على آدم وأبنائه أفراداً وجماعة فهناك (إنسان العين) حدقتها – وإنسان هو أنملة الأصبع . وغير ذلك .

الفصل الرابع

(الدافعية والضبط)

- مثال توضيحي
- دوافع السلوك الإنساني
- نماذج قرآنية من دوافع السلوك

  الجوع والظمأ – الميل نحو الجنس الآخر

  الوالدية – التجمع – الخوف
- سمات قرآنية للدوافع الأولية

  طيبات – زينة – عدم الاستشارة
- عوامل الضبط الذاتي

  الجهاز العصبي – والحاسي – عامل اجتماعي – إرادة ذاتية
- تخطيط مجالات الضبط

  ذات الدافع – هدف وظيفي وهدف غرضي

  وسائل الإشباع – مجال الأهداف
- الضبط يجعل الوليد إنساناً
- أمثلة الضبط الطفولي
- خلاصة القول .

الدافعيــة والضــبط

● **مثــال توضيحي :**

قام الفكر الإنساني بصناعة غير قليل من الآلات المتحركة ذاتياً ولنضرب مثلا بما هو قريب من حياتنا العملية مثل (السيارة) أو (الطائرة) أو (القطار) أو (الباخرة) أو (الدراجة) أو (الغواصة) نلاحظ أن هذه آلات تمتاز بوجود أساسي فيها لثلاثة أجهزة مهمة :

(أ) مولد القوة المحركة للآلة .

(ب) جهاز القيادة لتوجيه حركة الآلة .

(جـ) جهاز التحكم بسرعة الحركة .

فجهاز مولد الحركة له قوة تقدر بالأحصنة مثلا وتلك القوة تتناسب مع حجم الآلة ووزنها وما يتوقع لها من سرعة حركية وإنتاج أقصى مع ما يتصل بها من طاقة أو وقود .

وجهاز القيادة يضمن سلامة التوجيه نحو الهدف المطلوب للجهات الأربعة وفروعها على الأرض وللجهات الست ودرجاتها للجو أو بأعماق البحار . وكذلك بما لا يقل أهمية نجد جهاز التحكم بالسرعة ضرورياً لصحة الإنتاج وسلامة الآلة وسلامة من يتعاملون معها . والتحكم بالسرعة يشمل زيادة الحركة أو تخفيضها . كما يشمل الإيقاف الحركي الكامل :

إن سلامة كل جهاز تقاس بمدى مقدرته على القيام بوظيفته إلى جانب مقدرته على التفاعل المطلوب بأقصى سرعة مأمونة زماناً ومكاناً لضمان سلامة الإنتاج وسلامة الأمان . ولنتصور آلة ذات

قوة محركة ليس فيها جهاز توجيه للحركة ولا جهاز تحكم بالسرعة ان هذه الآلة ، إذا تحركت فإنها تنشر الخراب فيما حولها ، حركة عشوائية وأخيراً تحطم نفسها .

فجهاز المحرك المولد للقوة هو ما نسميه في الحياة الإنسانية وحركتها السلوكية (الدافعية) وجهاز التوجيه الهادف للحركة وسرعتها مع الإشراف على سلامة المحرك نفسه هو (الضبط) وفي ضوء المثل السابق دعونا نتصور (الإنسان) في (تكوينه النفسي) انه أعظم وأرق وأعقد آلة . خلقه الله بيديه فأحسن صنعه . ويقوم هذا الإنسان بما وهبه الله من ذكاء ويد وعلم بصناعة كل الآلات . . هذا الإنسان فيه محركات مولدات للسلوك والنشاط هي (الدوافع) وفيه (ضوابط) هي التي تحدد وجهته وسرعته إن خيراً فخيرا وإن شراً فشرا . . لأن الدوافع هي طاقات فطرية تقبل كل توجيه وضبط أو إهمال وانحراف .

● **دوافع السلوك الانساني :**

تتميز حياة الإنسان بتنوع أنشطتها المختلفة من تفكير وعبادة وتعلم وشعور وانفعال ووجدان وإلى حركة وسلوك . هذه الأنشطة النفسية لا بد لها من وجود محرك يسميه علماء النفس (دافعاً) أو (حاجة) أو (رغبة) أو (غريزة) أو (ميلا) ولن نتعرض للمناقشات الاصطلاحية الدقيقة لهذه الأسماء ونؤثر استخدام كلمة (دافع) في هذا البحث .

فالدافع هو الذي يحرك الإنسان بمثير ذاتي داخلي أو خارجي ليقوم بنوع معين من السلوك مدة محددة حتى إذا تم إشباع الحاجة الدافعة زال التوتر النفسي وعاد الدافع إلى مرحلة (الكمون)

إلى أجل يستأنف بعده الدافع توتره الجديد سعياً وراء إشباع جديد . . وهكذا تتكرر الدورة ما دام الإنسان حياً .

فالدوافع هي أساس الحياة النفسية للإنسان ومصدرها ، والدافع في أبسط مفاهيمه طاقة جسمية نفسية كامنة على شكل استعداد يدفعنا نحو سلوك معين يهدف إلى غاية . . مثل دافع الجوع والظمأ لتناول الطعام والماء ودوافع الجنس نحو لقاء الجنس الآخر — ودافع الخوف لطلب الأمان وغيرها . . وتمتاز الدوافع الإنسانية بما يلي :

(أ) ليست الدوافع بدرجة واحدة من القوة فدافع الأمومة ليس كدافع الجوع أو الجنس .

(ب) الدافع الواحد تختلف قوته من إنسان إلى إنسان تبعاً لمبدأ الفروق الفردية ، فدافع الجوع لدى إنسان قد يكون أقوى أو أضعف منه لدى أخيه .

(ج) الدافع الواحد لدى إنسان ذاته قد تختلف قوته من مرحلة إلى أخرى في حياته ، فدافع الجنس لدى إنسان يكون قوياً في شبابه بالمقارنة به عند شيخوخته .

(د) تمتاز كل الدوافع بمرونة مطاوعة عجيبة وهذا هو الأساس العضوي والنفسي لنجاح عمليات الضبط والتربية .

(هـ) تتعدد الدوافع الإنسانية وتتشابك فمنها الفطري والمكتسب ومنها الجسمي والنفسي وكلها متفاعلة في تكوين النفس الإنسانية في حياة الرحم والمجتمع وهذا التعدد في الدوافع يكسب الحياة النفسية تعقيداً وعمقاً وبالتالي يجعل عملية (الضبط) الذاتي والمتوازن أهم سمات الإنسان لبناء شخصية صحية سوية .

● **نماذج قرآنية من دوافع السلوك :**

إن القرآن الكريم كما رأينا من قبل قد أشار إلى الأسس الكبرى في مقومات النفس الإنسانية ، كذلك قد أشار إلى بعض دوافع السلوك وطرائق إشباعها مع إضفاء غايات نبيلة كبرى في أهدافها الحيوية . والقرآن حين أشار إلى بعض تلك الدوافع فإنما يريد من الإنسان أن يفهم ذلك البعض وأن يكون فهمه بداية لدراسة جادة لمزيد من البحث والكشف والدراسة وسنقدم نماذج من تلك الدوافع وهي :

(أ) دوافع فطرية جسمية نفسية مثل دوافع : الجوع والعطش والجنس .

(ب) دوافع فطرية نفسية اجتماعية مثل : الوالدية والتجمع والأمن والتفوق :

وفيما يلي تفصيل لأهم تلك الدوافع النفسية في ضوء الآيات القرآنية الكريمة .

أولا – دافع فطرى جسمي خاص :

هو (الجوع) ويندمج معه (العطش) وإشباعهما يتم (بتناول الطعام والماء) فالجسم البشري بنشاطه الحركي داخلياً وظاهرياً يفقد من قدراته الحرارية (التي هي خلاصة الغذاء) ولا بد لضمان الصحة من عملية الضبط لهذا الدافع الخاص كما يلي :

١ – أمر بالطعام والشرب لحفظ الحياة الجسمية سليمة وصحيحة فالاضراب المتواصل عن الأكل والشرب إثم لأنه يؤدي إلى إضعاف الجسم ثم إلى الإنتحار .

٢ــالصيام الإسلامي على الرغم من أنه امتناع عن تناول الطعام والشراب وما إليهما فإن ذلك نهاراً . . أما الايل ففيه أكل وشرب :

« وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيّن لَكُم الخَيْطُ الأبيَض من الخَيْطِ الأسْودِ من الفَجْرِ ، ثم أتِمُّوا الصِّيامَ إلى اللّيلِ »(١)

٣ ــ وعندما نتناول الطعام إشباعاً لدوافع الجوع فإن الإسلام يأمر بعدم الإسراف . فالمبالغة بإشباع الدافع لا تقل سوءاً في الجسم عن حرمان الدافع من الإشباع :

« وَكُلوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنّه لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ »(٢)

٤ ــ ويتجلى الضبط الذاتي في أسمى معانيه ، عندما يأمر الإسلام أن يكون الطعام حلالا طيبا . وأن تكون اللحوم مما ذكر اسم الله تعالى عليها عند الذبح تزكية وتطهيرا وتلك هي الطيبات .

٥ ــ وقدحرم الإســلام إشباع دافع الجــوع والعطش بالخبائث المحرمة مثل الميتة والخنزير وما أهل به لغير الله والخمر والمخدرات . . وكل ضار بالجسم :

« الذينَ يَتّبِعونَ الرّسولَ النّبِيّ الأمِّيّ الذي يَجِدونَهُ مكتوباً عِنْدَهُم في التّوراة والإنْجيلِ يأمُرُهم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُم عَنَ المُنْكَرِ ويُحِلُّ لَهُم الطّيباتِ ويُحَرِّم عَلَيْهِم الخَبَائِثَ . . . » . (٣)

---

١ ــ سورة البقرة آية ١٨٧ ·
٢ ــ سورة الاعراف آية ٣١ ·
٣ ــ سورة الاعراف آية ١٥٧ ·

ثانيا ـ دافع جسمي نفسي خاص :

إنه دافع الميل نحو الجنس الآخر وإشباعه الزواج الحلال فقال تعالى :

« زُيِّنَ للنّاسِ حُبُّ الشّهَوَاتِ منَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطير المُقَنْطَرَةِ منَ الذّهبِ والفِضّةِ والخَيْلِ المُسوَّمةِ والأنْعامِ والحَرْثِ ، ذلكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا واللهُ عنْدَهُ حُسْنُ المئابَ » . (١)

والضبط النفسي التربوي لهذا الدافع العضوي الفطري إنما يكون :

١ – بالاعتراف الواضح . . وتشجيع الزواج المبكر ، لذا فهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

٢ – عدم اعتبار (الرهبانية) فضيلة أو كمالا إنسانياً ولقد أنكرها القرآن على أصحابها كما في قوله تعالى :

« ورَهْبانِيّةً ابْتَدَعُوهَا ما كَتَبْناهَا عَلَيْهِم إلا ابْتغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فما رَعَوْها حَقّ رعايَتِها ، فآتينَا الذِينَ آمنُوا منهم أَجْرَهُم وكَثيرٌ منهُم فَاسِقُون » . (٢)

٣–الإشباع الجنسي بالزواج وسيلة لإقامة حياة زوجية قوامها السكينة والود والرحمة وحسن المعاشرة فهذا ما يهب الحياة الزوجية سعادة متجددة :

---

١ – سورة آل عمران آية ١٤ . ٢ – سورة الحديد آية ٢٧ .

« وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » . (١)

٤ـ الإشباع الجنسي بالزواج وسيلة أيضاً لإنجاب الذرية التي تجعل الحياة الزوجية متجددة مع مجيء الأطفال وتحقق إحدى أهداف الدافع الجنسي وهو بقاء النوع كما في الآية الكريمة :

« يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم مِنْ نَفسٍ واحدةٍ وَخَلَقَ منهَا زَوجَها وَبثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثيرًا ونَساءً واتَّقُوا اللهَ الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُم رَقِيبا » . (٢)

ثالثا ـ دافع فطرى جسمي نفسي اجتماعي :

وهو الوالدية ـ وإشباعها إنجاب الذرية . ودافع الوالدية يشمل الأبوة والأمومة طلباً للأطفال بيد أن هذا الدافع في مستواه الإنساني يقتضي التزاماً خلقياً وسلوكياً من طرفي الوالدية .

(أ) في جانب الآباء والأمهات ليس مجرد تناسل حيواني بل ذرية شريفة معروفة النسب يقوم الوالدان بتقديم تربية مقصودة تشمل الجسم غذاء ـ وتسمو بالروح إيماناً بالله : قال تعالى :

---

١ ـ سورة الروم آية ٢١ .

٢ ـ سورة النساء آية ١ .

« والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين » . (١)

(ب) والذرية لا تقل أهمية عن الزواج فهما متلازمان في الحياة النفسية السوية ، ففي سياق بيان صفات المؤمنين يذكر القرآن بعض صفاتهم بأنهم لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما وأنهم يدعون الله تعالى :

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » . (٢)

(ج) ولأجل ذلك كانت الذرية دعاء صادقاً لأنبياء طاهرين وذلك لضمان بقاء النمو الإيماني المسلم متسلسلاً في أجيال متعاقبة كما في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لنفسيهما بحسن الإسلام لله تعالى وكذلك لذريتهما .

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة . . . » . (٣)

وفي دعوة زكريا عليه السلام أن يهبه الله ذرية طيبة وكانت دعوة مستجابة مباركة .

« هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . . » . (٤)

١ ـ سورة الطور آية ٢١ .
٢ ـ سورة الفرقان آية ٧٤ .
٣ ـ سورة البقرة آية ١٢٨ .
٤ ـ سورة آل عمران آية ٣٨ .

رابعا ـ دافع نفسي اجتماعي :

هو دافع الشعور بالوحدة المؤلمة وإشباعها (بالتجمع) — فحياة الجماعة ميل فطري أصيل لدى الإنسان : ويتجلى ذلك لدى الطفل الوليد في :

(أ) ضمان استمرارية حياته العضوية لتقديم الطعام والشراب والملبس والمأوى من جماعة إنسانية من حوله . .

(ب) تعديل سلوكه العشوائي بأنماط إنسانية اجتماعية خلقية وفي اكتسابه عادات صحية وسلوكية سليمة فالطفل يقوم عادة بسلوك عشوائي عام . والجماعة البشرية الأولية ممثلة في الوالدين يستجيبون له من حوله إذ يمدونه بالتشجيع ويزودونه بالموافقة والاستحسان أو أنهم يمنحونه تصحيحاً وتعديلا ويتعلم الطفل بالتدريج عن طريق التقليد والتشجيع أساليب نافعة ومقبولة للضبط النفسي والتربية الذاتية السليمة .

(ج) لاستمرار السعادة النفسية للطفل في كونه مركز اهتمام الآخرين ومحبتهم والعطف منهم نحوه .

والإسلام يرعى هـذه الرسائل لإشبـاع دافع التجمع للوليد بضمان حضانته ورضاعه ورعايته . . ثم تستمر هذه الرعاية لهذا الدافع الإجتماعي بتشريع الصلوات المفروضة في تفضيل التجمع للصلوات اليومية ـ ولصلات الجمع الأسبوعية ، والأعياد سنوياً ثم ان الحج بذاته عبادة اجتماعية لأمم وشعوب يجمعهم الإيمان . . في الأرض المقدسة الطاهرة كل عام كما جعل الهدف من إشباع التجمع هو التعاون وأن الأكرم والأفضل إنما هو الأتقى لله إيماناً وعملا صالحاً . وهذا يتم عن طريق الإنتماء للجماعة والعضوية فيها .

« يا أَيُّها النّاسُ إنّا خَلَقناكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى ، وَجَعلناكُم شُعُوباً وقبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِير » . (١)

خامسا ـ دافع نفسي حيوي :

هو دافع (الخوف) وإشباعه يتم بضمان (الأمن) فالوليد الإنساني تبدأ مظاهر الخوف لديه بشكل فزع عميق يشمل الجسم كله بحيث تظهر آثاره على أسارير الوجه ونظرات العيون ويصاحبه صراخ وبكاء ورعشات جسمية ظاهرية وتغيرات عضوية داخلية.. فإذا أصبح الوليد يزحف أو يمشي فإنه يحاول عند خوفه الإبتعاد عن مصدر الخوف وسببه كالهرب من مواجهته أو إخفاء الرأس أو تحويل الوجه وجهة أخرى ـ فإذا غدا الطفل يتكلم بسهولة في السنة الثالثة من عمره فإنه يتطور من مجرد الصراخ واضطراب الجسم إلى صياح مصحوب بكلمة أو كلمات يرددها متقطعة مع اصفرار الوجه وذبول العينين مع كلمات استغاثة وفزع . وهذا أحد مظاهر إمكانية إيجاد نوع من الضبط اللغوي في انفعالات الخوف .

● **قبول (الخوف) للضبط :**

في دافع الخوف وطرق التعبير السلوكي عنه إمكانيات متعددة للضبط وفقاً للطريقة التي يتفاعل الإنسان بها في شتى مراحل حياته مع من حوله من الناس فقد يتحول الخوف إلى حذر من الغير ـ وإلى احترام للرؤساء . أو إلى جبن وانهزام أو إلى شك يفقد معه الثقة بنفسه وبتفكيره . كما قد يتحول الخوف بفضل عملية

---

١ ـ سورة الحجرات آية ١٣ .

الضبط السليم إلى تفكير متزن . وإلى خوف من معصية الله أو خوف يدفع إلى التزام النظافة والصحة الوقائية أو خوف العار والفساد والاشراك . ويستطيع الضبط أن يتعمق في جذور دافع الخوف ليجعل منها دوافع أمن وطمأنينة . وإليكم الأمثلة التالية : إن ما يسمى بالدراسات النفسية التحليلية (بعقد الخوف من المستقبل) الإنسان المؤمن بالله تعالى واثق بأن ما قدره كائن لا محالة ولكن حيث أن ذلك غيب فعلى الإنسان أن يفكر ويقدر ويشاور فإذا عزم فليتوكل على الله تعالى . فإن كان في ذلك موافقة لقدر الله كان له أجر العمل وأجر الإيمان بالقضاء فكان شاكراً سعيداً ، أما إذا كان الواقع على غير ما أراد أو خطط وعمل ، كان له أجر الإيمان بالله وقدره وأجر العمل المطلوب ، وكان صابراً وله أجر الصابرين ، لا سيما إذا كان متعلقاً بالرزق فالله قد تكفل له بالرزق ما دام حياً وعليه أن يسعى ويعمل ويكد ، فليس لدى المؤمن (عقدة الخوف على الرزق أو على المستقبل) .

« ٱللَّهُ الذي خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم » (١) .

وكذلك ما يسمى (بعقدة الخوف أو الموت) فالإنسان المؤمن يعتقد جازماً أن المحيي والمميت هو الله وأن الآجال بيده — فلا يستطيع صديق أن يمد في العمر ساعة ، كما لا يستطيع عدو أن ينقصه ساعة ، ثم إن المؤمن يعتقد أن الله قد وعد المؤمنين جنات فيها كل نعيم وسلام وأمان . كما في قوله :

---

١ — سورة الروم آية ٤٠ .

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً »(١) .

وقوله تعالى أيضاً :

« إِنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ »(٢) .

وأيضاً قوله تعالى :

« وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وَمَا تُوعَدُونَ »(٣) .

● **سمات قرآنية للدوافع الأولية :**

الدوافع الأولية هي استعداد عام أو طاقة محركة لضمان سلامة الحياة الفردية وقوتها ولضمان حياة الجماعة البشرية في تجديدها عن طريق التناسل . لذا فالقرآن يضفي عليها سمات محببة لأن الله فطر الناس عليها وأهم تلك السمات القرآنية للدوافع ما يلي :

أولا : الدوافع طيبات وحلال وخير وهذه الصفات من أشد درجات الاعتراف بهذه الدوافع واحترامها وعدم محاولة التنكر لها أومحاربتهافليس في التربية القرآنية (كبت) أو (عقد) للدوافع بل هي حلال ومن الطيبات . وهذه الصفة للناس جميعاً كما تشير الآية الكريمة في توجيه الخطاب :

---

١ - سورة آل عمران آية ١٤٥ . ٢ - سورة فصلت آية ٣٠ .
٣ - سورة الذاريات آية ٢٢ .

« يا أيّها النّاسُ كلُوا ممّا في الأرْضِ حلالاً طيّباً ، ولا تتّبعوا خُطُواتِ الشّيْطانِ إنّه لكُم عدوٌّ مُبين »(١) .

ثم يكون الخطاب موجهاً للمؤمنين على وجه من التخصيص والتأكيد :

« يا أيّها الذينَ آمنُوا كلُوا مِنْ طيّباتِ ما رَزَقْناكم وَاشْكُرُوا للهِ إنْ كُنْتُم إيّاهُ تعْبُدون »(٢) .

وكذلك القرآن يعتبر المال وجمعه (خيراً) لأنه وسيلة لفعل الخير إنفاقاً . . ووسيلة لرخاء العيش شكراً لله تعالى وذلك خير أيضاً . كما نجد ذلك في الآية الكريمة التالية في سياق الإرث .

« كُتُبَ عليْكُم إذَا حضَرَ أحدكُم الموْتُ إنْ ترَكَ خيراً الوَصيّةُ للوَالدين وَالأقْربين بالمعْرُوفِ حقّاً على المُتّقين »(٣) .

ثانياً : الدوافع زينة الحياة لأنها تجعل الحياة ذات بهجة وحيوية تدفع للعمل والكسب والإنجاب . والقرآن في عدة مواقع يصف الدوافع في جمع المال وملكيته وإنجاب البنين والبنات ودافع الأكل والشرب وارتداء الملابس الجميلة كما نجد ذلك مفصلا في الآيات التاليات

« المَالُ والبَنُونَ زينةُ الحَياةِ الدّنْيا والباقياتُ الصّالِحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وَخيرٌ أملاً »(٤) .

---

١ ــ سورة البقرة آية ١٦٨ .
٢ ــ سورة البقرة آية ١٧٢ .
٣ ــ سورة البقرة آية ١٨٠ .
٤ ــ سورة الكهف آية ٤٦ .

« يا بَني آدَمَ خُذُوا زينتَكُم عندَ كلّ مَسْجِدٍ وكلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرفُوا إنّه لا يحِبُّ المُسْرفين »(١) .

« قُلْ مَنْ حَرّمَ زينَةَ اللهِ التي أخْرَجَ لِعِباده ، والطّيّباتِ منَ الرّزْق قُلْ هيَ للذينَ آمنُوا في الحياة الدنيا خالِصَةً يومَ القِيامةِ كذلكَ نُفَصّلُ الآياتِ لِقومٍ يعلمُون »(٢)

« قُلْ إنّمَا حَرّمَ رَبّيَ الفَواحِشَ ما ظَهرَ منها وما بَطَنَ والإثْمَ والبَغْيَ بغَيْرِ الحَقّ ، وَأن تُشْرِكُوا باللهِ ما لَمْ يُنَزّل بهِ سُلْطاناً وَأنْ تَقُولوا على اللهِ ما لا تعْلَمُون »(٣) .

ثالثاً : أن تكون الدوافع في مستواها الطبيعي الفطري دون تعمد للاستثارة الاصطناعية المتكلفة لأن الاستثارة ترهق الأعصاب والعضلات للأجهزة العضوية الجسمية المتصلة بتلك الدوافع فاستثارة الطعام والشراب فوق الحاجة إليهما يؤدي إلى البطنة وهي ظاهرة غير صحية تسبب آلاماً وأمراضاً وقد تقضي على صاحبها .

كذلك فإن الاستثارة الجنســية لاتشبعها وإنما تؤدي إلى ما يسمى (بالسعار الجنسي) أو (الجنون الجنسي وشبقه) وهذا لا يرتوي بل يطلب مزيداً من الاستثارة والارتواء في حلقة مفرغة تستهلك الطاقة الجسمية والعصبية للإنسان لأن الإشباع

---

١ ـ سورة الاعراف آية ٣١ .
٢ ـ سورة الاعراف آية ٣٢ .
٣ ـ سورة الاعراف آية ٣٣ .

الجنسي الأهوج المفرط يستهلك الطاقة الجسمية والعصبية المخزونة لدى الإنسان من فائض القوة .

ثم إن الاستثارة الاصطناعية للدوافع كثيراً ما تؤدي إلى ضعف الإرادة الإنسانية التي يجب أن تكون قوية لنجاح عملية الضبط الذاتي السليم ولنتصور إنساناً يريد أن يحفظ رشاقته الصحية فيفسح المجال لنفسه ليأكل من كل ساعة يرى فيها طعاماً . وأن يستعين على فتح شهيته بالمقبلات . . كيف تكون إرادته . كذلك الحال في إنسان يريد أن يحفظ كرامته الإنسانية وعفافه الشخصي فإنه يحاول غض البصر . . والبعد عن مواقف التهم . .

وما أجمل التوجيه القرآني الحكيم للرسول الكريم في تربية المؤمنين والمؤمنات :

« قُلْ لِلمؤْمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم ذلكَ أَزْكَى لَهُم . إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون ، وَقُلْ لِلمؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ »(١) .

إن الميزة الكبرى لعملية الضبط الذاتي في تنشئة الإنسان وتربيته هي كونها تستند إلى عوامل داخلية عضوية جسمية إلى جانب عوامل نفسية ذاتية وهذا ما يجعل الضبط الذاتي التربوي عملية صحية في تكامل الفرد ونموه السوي السليم بعكس عمليات (الكبت) فإنها مفروضة قسراً من المجتمع على النفس . كما

---

١ ـ سورة النور آية ٣٠ـ٣١ .

أن ما يدعي بعمليات (الإرشاد والتوجيه) النفسي وحدها هي في عمومها عمليات تبدأ من خارج النفس . لذا فإن عمليات الضبط الذاتي التربوي تكون أكثر يسراً وسهولة في نمو النفس لأنها تمس الدوافع ذاتها قوة ودرجة واتجاهاً وهدفاً . ولأنها تقوم أساساً على العوامل الحيوية التالية :(١) :

أولا : ما يتميز به التكوين الإنساني من جهاز عصبي معقد يسيطر على أجهزة الجسم بضبط وتكييف وتنظيم العمليات الحيوية الضرورية للحياة بانتظام وانضباط – كما أن الجهاز العصبي يمثل حلقة الاتصال بين ما نسميه جسماً إنسانياً وبين (النفس الإنسانية) . والمخ هو مركز الاتصال في الأجهزة والحواس والقيادة والتوجيه والانضباط .

وهذا الجهاز بقسميه الإرادي الخاضع لضبط الإنسان المقصود في المشي والكلام وحركات الأطراف والقسم اللاإرادي وهو ذاتي الحركة مما يختص بالأجهزة الداخلية في وظائف التنفس ودوران الدم وهضم الطعام وإخراج الفضلات . هو جهاز معقد يتكون من حوالي عشرة آلاف مليون خلية عصبية وهي موجودة بكاملها ساعة مولد الإنسان وتبقى معه في جسمه دون زيادة ما دام حياً فإذا ما تعرضت إحدى خلاياه العصبية للتلف فلن تنشأ عصبية جديدة لتحل مكانها(٢) .

هذا الجهاز العصبي بقسمه الإرادي يستطيع الإنسان بحكم سيطرته عليه أن يضبط غير قليل من أعماله السلوكية القولية والعملية والانفعالية الظاهرة وهذا عامل عضوي أساسي في عملية (الضبط) و (التربية الذاتية النفسية) .

١ – قطب : محمد (دراسات في النفس الانسانية) ص ١٧٥–١٨١ .
٢ – عكاشة : د. أحمد (التشريح الوظيفي للنفس) ص ٢٧–٢٨ .

والدافع الإيماني بالله المعبود هو أقوى عامل لهذا التحكم الضبطي الوظيفي حين يعلم المؤمن أن الله أقرب إليه من حبل الوريد وأنه يحول بين الإنسان جسماً . . وقلبه مصدر الحركة والنشاط والحياة وصدق الله العظيم :

« يا أَيّها الذين آمَنُوا استَجِيبُوا للهِ وللرّسُولِ إذا دَعاكُم لِمَا يُحْيِيكُم وَاعْلَمُوا أنّ اللهَ يَحُولُ بينَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّه إليْهِ تُحْشَرُون »(١) .

ثانياً : ما يتمتع به الإنسان من جهاز حاسي يستطيع توجيهه فطرياً إلى ما يريد نفسياً والحساسية الإنسانية نوعان فهي إما باطنية هي حاسة الحركة والتوتر العضلي الموجودة في العضلات والمفاصل و تساعد على الإحساس بالضغط و الثقل والتعب ، و حاسة الأذن الداخلية التي يستطيع فيها الفرد أن يقوم بسلوكه الإرادي الحركي و الانفعالي والإحساس بتوازن الرأس والجسم كله وهناك الحساسية الخارجية – وهي أسبق وجوداً ونضجاً لدى الوليد ، وهي السمع والبصر واللمس والذوق والشم ، فالسمع والبصر مصدران أوليان للمعارف الإدراكية للإنسان الوليد وهما مع الفؤاد مصدر العمليات العقلية النامية والآية الكريمة تشير صراحة إلى هذه الحقيقة النفسية الجسمية في الإنسان :

« وَاللهُ أَخْرَجكُم مِنْ بُطُونِ أُمّهاتِكُم لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لكُم السّمْعَ وَالأبْصَارَ والأفئِدَةَ لعَلّكُم تَشْكُرون »(٢) .

---

١ – سورة الانفال الآية ٢٤ .   ٢ – سورة النحل الآية ٧٨ .

ثم أكد المسؤولية الذاتية عن هذه الحواس الفطرية ، وعما
يصدر الفكر من أحكام . فقال تعالى :

« وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لكَ بهِ عِلْمٌ إنّ السّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كلّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئولاً »(٤) .

ثالثاً : رغبات نفسية فطرية تدفع الإنسان إلى ضبط سلوكه
وانفعالاته بما يحقق له المشاركة الاجتماعية والبعد عن
الشذوذ ومخالفة الجماعة فهذه الرغبات النفسية الاجتماعية تدفع
الفرد للانسجام والتناسق بمايضمن له رضاء أفراد مجتمعه تحقيقاً
لسرعة الاستجابة وتأكيداً لراحته النفسية في مرضاة الله بما
يقتضيه الإيمان به . وفي انسجام مجتمعه بما تقضيته عضويته
المحترمة . وهذا كله يستند أصلا إلى حياة الأنسان في مجتمع
إيماني سليم العقيدة قويم الاتجاهات والسلوك .

رابعاً : قدرات ذاتية واعية شعورة تدفع صاحبها للعمل
الجاد السليم في اكتساب أنماط سلوكية أو عادات أو اتجاهات
توافق العقيدة والفكرة وهذا ما يتمثل (بالإرادة الذاتية)
أو (العزيمة الشخصية) فهي عامل نفسي شخصي مهم في عملية
(الضبط) إذ أن مجرد الرغبة النفسية وحدها لا تكفي ليكون
السلوك سليماً نبيلا . . كما أن مجرد القناعة الفكرية النظرية وحدها
لا تجدي إذ لا بد أن تتضافر الرغبة النفسية مع القناعة الفكرية
ليتم ترجمة العقيدة والمبدأ إلى سلوك إدراكي شعوري سليم .

فالإنسان المؤمن لا يكفيه أن يكون إيمانه مجرد ميل نفسي أو قناعة
فكرية بل لابد أن يتحول ذلك إلى سلوك واقعي في الحياة العملية .

١ – سورة الاسراء الآية ٣٦ .

● **تخطيط مجالات الضبط :**

حقيقتان نفسيتان مهمتان في (الدوافع الإنسانية) :

الأولى : أن الدافع على الرغم من فطريته الأولية أوقوة اندفاعه في الميل المكتسب هو طاقة عمياء هوجاء تسعى للاشباع الفوري عند التوتر النفسي بأي سبيل يتاح أمامها أما (الإشباع) المنظم والسليم فذاك بعض وظائف (الضبط الذاتي) كما سنرى .

الثانية : أن الدافع السلوكي في الإنسان السوي له هدفان : هدف وظيفي مباشر وهدف غرضي شامل(١) ولإهمية التفريق بين هذين الهدفين في الحياة الإنسانية نضرب المثل التالي في دافع الجوع نحو تناول الطعام .

فالهدف الوظيفي لدافع الجوع هو الأكل لتقوم المعدة بوظيفتها وليقوم الجسم بنشاطه حياً سليماً . أما الهدف العام الإنساني لتناول الطعام فهو تحقيق حياة إنسانية متكاملة للجسم والروح والنفس والعقل .

فالحيوان يأكل ليعيش ويعيش ليأكل فالدافع فطري لديه لضمان حياته وحياة أجياله بذات المستوى بدائرة مغلقة تبدأ من حيث انتهت وتنتهي من حيث بدأت .

أما الإنسان فإنه يأكل ليعيش حياة إنسانية ليضمن السعادة لروحه إيماناً وتعبداً . ولنفسه راحة وطمأنينه ولعقله بحثاً ونمواً . ولأجياله تقدماً وازدهاراً — في سلم من التقدم الصاعد .

وفي ضوء ما تقدم مع تذكرنا لما سلف في مقدمة هذا الفصل في التمثيل التوضيحي للدافعية والضبط فإننا نقدم التخطيط — لمجالات الضبط في الحياة النفسية السوية للإنسان كما يلي :

---

١ — الهاشمي : د. عبد الحميد (الرسول العربي المربي) ص ٣٨٤_٣٨٧

١ ـ مجال ضبط في كيان الدافع ذاته :

ضبط درجة في القوة الطبيعية دون استثارة اصطناعية كما تقدم . وضبط توقيت منظم في تحديد وقت الطعام والشراب وتخلص من الفضلات مثلا لا أن تكون في كل وقت ، وكذلك عدم الاستثارة للدافع الجنسي بغض البصر ـ والالتزام بالعفة والحياء حتّى مع الزوج الحلال .

كما تقدم من آيات متعددة في هذا الفصل .

٢ ـ مجال ضبط وسائل الإشباع :

في الالتزام الدقيق بما أحل الله ـ فما حرّم الله طريقاً ضاراً للإشباع إلا وأحل معه طريقاً شريفاً طيباً لإشباع ذلك الدافع ذاته .

ففي طلب المال ، وحيازته وتملكه ، حرم الإسلام سرقة مال الآخرين وغشهم . وأكل أموالهم بالباطل ولكنه أحل البيع والشراء والتجارة والصناعة . . وفي دافع الجنس . . حرم الله السفاح وأحل وبارك الزواج الشريف الحلال . .

وفي دافع حب التفوق والمنافسة . . حرم الإسلام الاعتداء والتخريب وأذى الناس وحبب إلينا الجهاد والمنافسة في الرياضة والمصارعة وفعل الخيرات وطلب العلم وخدمة الناس . كما أن مجال ضبط وسائل الإشباع يشمل اعتدال درجة الإشباع وطرقه كما في الآية التالية :

« وَلا تجْعَلْ يَدَكَ مغْلولةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فتَقْعُدَ ملوماً محْسُوراً »(١)

---

١ ـ سورة الاسراء الآية ٢٩ .

٣ ـ ثم ختاماً ضبط في مجال الأهداف حيث يتعاون إشباع الهدف الوظيفي المباشر للدافع مع الهدف الإنساني الشامل النبيل في مستوى العقيدة والخلق . في مرضاة الله تعالى في الحياة الدنيا عمراناً وإصلاحاً ـ وفي الحياة الآخرة مغفرة وثواباً .

وفي الآيتين الكريمتين التاليتين . تصديق للأمر :

« وابْتغِ فيما آتَاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبكَ من الدّنْيا وَأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إليْكَ وَلا تَبْغ الفَسَادَ في الأرْضِ إنّ اللهَ لا يحِبّ المُفْسِدين »(١) .

ودعاء لله مستجاب :

« ومِنْهُم مَنْ يقُولُ رَبّنَا آتِنَا في الدُّنيَا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حسنةً وَقِنَا عَذَابَ النّارِ ، أولئِكَ لهُم نَصيبٌ مِمّا كَسَبُوا واللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ » . (٢)

● **الضبط يجعل الوليد انسانا :**

يمتاز الوليد البشري بما وهبه الله تعالى من طاقات وراثية فطرية وهي كامنة فيه وعلى شكل طاقة عامة . وعلى المجتمع الإنساني الأول ممثلا بالوالدين أو من يقوم مقامهما أن يساعد الوليد على تحويل تلك الطاقات الفطرية الكامنة إلى سلوك إنساني . فإذا لم يتيسر لذلك الوليد البشري حياة إنسانية من حوله تعمل على ضبط طاقاته وعلى حسن توجيهها فإنه يفقد إنسانيته المدركة

---

١ ـ سورة القصص الآية ٧٧ .

٢ ـ سورة البقرة الآية ٢٠١ـ٢٠٢ .

والناطقة . . فعملية الضبط التربوي هي التي تساعد الوليد لينمو بالتدرج من مجرد كائن حيواني بحت إلى شخصية إنسانية . وهذه الطاقات الفطرية تتميز نفسياً بما يلي : (١)

١ – عجز عضوي يحتاج لضمان حياته إلى معونة الراشدين .

٢ – مرونة مطاوعة تتقبل الضبط والتوجيه لكل طاقاته .

٣ – طفولة إنسانية طويلة تزيد كثيراً من السنوات عن طفولة أي كائن حيواني آخر – وذلك لتقديم فترة زمنية تمتد لسنوات متعاقبة ومتعددة لتسهيل عملية الضبط التربوي في التقبل والتدريب والسلوك .

● **أمثلة الضبط الطفولي :**

يمتاز الطفل البشري بالمشي على قدمين منتصب القامة . ولكن هذه الميزة تولد معه كامنة على شكل حركات عشوائية هوجاء بالجسم كله مع أطرافه بحيث لو ترك الوليد دون ضبط توجيهي متدرج لظل حياته كلها يزحف أو يحبو ولا يحسن المشي بالانتصاب القائم – بينما المجتمع الإنساني الذي يساعد الوليد بمراحل من عملية الضبط المتدرج مع النضوج العضـــلي والعصبي المتناسق للوقوف أولا مستنداً ثم الوقوف دون مساعدة . ثم السير مستنداً ثم السير بذاته مستقلا ثم الجري والقفز .

وكذلك ما يمتاز به الإنسان من مواهب النطق والكلام فهذه الموهبة فطرية كامنة تظهر بأصوات عامة بهمه على شكل بكاء وصراخ تنتظر من المجتمع الإنساني من حولها أن يضبط تلك الأصوات العامة المتناثرة ليساعدها في مراحل النضوج المتدرجة على

---

١ – الهاشمى : د. عبد الحميد (علم النفس التكوينى) ص ٢٢٦ .

أن يشكلها بكلمات وجمل وحروف لتكون لغة إنسانية كاملة التعبير والفهم . بحيث لو ترك الوليد إلى فطرته والوراثة الكامنة لظل حياته كلها لا يتكلم لغة إنسانية وإنما هي أصوات حيوانية بدائية ـ وكذلك الحال في عمليات الضبط للمحافظة على النظافة الشخصية من الفضلات الجسدية .

● خلاصة القول :

خمس آيات متواليات من سورة (آل عمران) هي أحسن تلخيص لأهمية وجود عملية الضبط الذاتي للحياة النفسية السلوكية . مقترناً ذلك الضبط بعوامل تجديده وتنميته كلما طرأ ضعف إنساني بين حين وآخر في تدرج متناسب متوازن .

فذكر الله عامل تذكير بسمو الإنسان وكرامته بصلته بالله فلا ينحدر بعيداً بل يعود إلى جوهره والتوبة لله عامل نظافة متجددة يستعيد بها الإنسان صحته الروحية والنفسية والسلوكية في هذه الحياة الدنيا ثم عند الله المزيد من الفضل العميم :

« وَأَطيعُوا اللهَ والرَّسولَ لعَلَّكُم تُرحَمون ، وَسارِعُوا إلى مَغفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَوَاتُ والأرْضُ أُعِدَّتْ للمُتَّقين ، الذينَ يُنْفِقونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكَاظِمينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنين ، والذينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنفُسَهُم

ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوب
إلاَّ الله ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُم يَعْلَمُون ،
أُولئِكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَة مِنْ رَبِّهِم وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِها الأنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْم أَجْر العَامِلِين »

صدق الله العظيم

---

١ ـ سورة آل عمران الآيات (١٣٢ـ١٣٦) .



الفصــل الخامس

(المواقف النفسية فى القرآن الكريم)

– الموقف النفسي وأهميته التربوية . .

– بين القصة والموقف .

– مميزات القرآن في مواقفه النفسية :

الصدق الواقعي – نموذج قابل للوقوع – هدف غرضي

– أمثلة قرآنية لمواقف نفسية :

الأمومة – المرأة بين العمل والزواج – الحسد القاتل – الغيرة بين الأخوة – الشائعة – معالم التكوين الإنساني – نمـــوذج لشخصيتين – شخصية باغية – المقاطعة الاجتماعية .

– موقف نفس قاتل :

سبب دافع – تهديد وانتقام – الأخ الشرير – الأخ الوديع – تطويع الجريمة – الخسران والندم – درس من الحيوان – الأمن الفردي والجماعي .

– كلمة (نفس) في القرآن الكريم .

● **الموقف النفسي وأهميته التربوية :**

الموقف في الحياة النفسية هو مجموعة من العوامل الإنفعالية التي تجعل صاحبها أو أصحابها يقوم بنوع مركزي من السلوك تدور حوله تلك الإنفعالات بجوانبها الإيجابية والسلبية . فالموقف في الدراسات النفسية يتضمن ثلاث عوامل متفاعلة :

(أ) النمط السلوكي وما خلفه من دوافع خاصة تؤثر في نوعية السلوك ودرجته .

(ب) الإنسان نفسه في مجموعه ككل في أبعاده التكوينية .

(ج) المحيط البيئي بكل مقوماته المتعددة ولا سيما المجال النفسي الإجتماعي الذي يعيشه ذلك الإنسان .

ودراسة الموقف النفسي هو فهم مقصود لما يحدث للإنسان فعلا في الحياة اليومية وليس في العمل النفسي أو في مستوى الافتراض النظري أو الخيال الأدبي أو الأسطورة الخرافية . فالإنسان مثلاطبيب النفسالذي حرم الذريةسنوات علىالرغم من العلاج يضم إلى بيته يتيماً وليداً يرعاه تربية وتعليماً—وبعد عشر سنوات يرزقه الله ولداً من صلبه—فيظل يرعى اليتيم كما يرعىولده شكراً لله الذي رزقه وأنعم عليه .

هذا موجز لشريط طويل من أحداث متسلسلة تدور حول محور نفسي واحد يمثل (موقفاً نفسياً) ، ودراسة الموقف النفسي تقدم لنا فهماً واسعاً للحياة النفسية الكاملة للإنسان ككل في سبيل حسن التعامل وإنشاء العلاقات أو في سبيل إقامة تنظيم أو إدارة أو تشريع . .

ولعله من عيوب علم النفس التقليدي أنه كان يعنى بدراسة جزئيات متفرقة للنفس الإنسانية مثل (الذكاء) أو (الميول) و (الانفعالات) (العمليات العقلية) (الشعور) وما إليها ثم تظل الدراسة لتلك الجزئيات مبعثرة وبذلك يكون فهمنا للنفس الإنسانية فهماً ناقصاً أو مشوهاً . لذا فإن الدراسات النفسية ينبغي أن تقوم في إطار (الموقف النفسي العام) وذلك للإيجابيات العلمية التالية :

(أ) الموقف النفسي بأبعاده وأشخاصه هو صورة صادقة من الحياة الإنسانية في تعدد الدوافع وتفاعل العوامل النفسية الإجتماعية .

(ب) يساعد الموقف على فهم متكامل للنفس الإنسانية في أبعادها الجسمية والإدراكية والإنفعالية فالإنسان كله هو الذي يحب ويكره ويرضى ويغضب ويفرح ويحزن ويتعاون أو يكون أنانياً . . .

(جـ) يقدم الموقف للمربين والمرشدين النفسيين والرؤساء الإداريين معونة عملية لنجاح ما يعنيهم من عمليات التربية والتعليم أو الإرشاد النفسي وعلاجه أو التنظيم الإداري أو القيادي .

● **بين القصة والموقف :**

بعد هذا قد يقال : ما الفرق بين القصص القرآني والمواقف النفسية في القرآن ؟ ! .

للجواب نقول : إن القصة ذات مفهوم أوسع وأشمل من الموقف فكل موقف هو جزء أساسي من قصة . بمعنى أن الموقف يمثل مرحلة مهمة وحاسمة تتفاعل فيها شخصيات القصة في ذروة التفاعل الإنفعالي إشباعاً لتوترهم السلوكي .

فالموقف مشهد نفسي تسلط عليه الأضواء المكثفة لأنه مشحون بانفعالات متعددة تدور عموماً حول محور انفعالي مركزي يمثل قمة تصاعد أحداث القصة .

فالموقف أشبه بتلك اللقطات التي تصورها عدسات التليفزيون ليتم عرضها ممثلة اختصاراً مكثفاً جامعاً . ثم إن الموقف مع تأكيد كونه حقيقة عاشها أناس محددون بأحداثها فإنها تقدم درساً متجدداً ونموذجاً لنوع سلوكي أو نمط نفسي شخصي يمكن أن يحدث في كل جيل وفي كل مكان على وجه الأرض .

والقرآن الكريم في رسالته الهادية الخالدة والمتجددة ـ يقدم لذلك الموقف عوامل الثواب والتعزيز لما كان خيرا ـ كما يحدد أساليب الوقاية والعلاج لما كان شرا . لأن الموقف يمتد بجذوره الواقعية إلى النفس الإنسانية في كل ما لها من مقومات أساسية أولية في مراحل التكوين مدى فترة الحياة مع التوجيه المستمر والمتجدد .

● **مميزات القرآن في مواقفه النفسية :**

القرآن الكريم كتاب الله خالق الإنسان والعليم بسره ونجواه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ـ لذا فإن المواقف النفسية في القرآن تمتاز بصدق الواقعية ـ كما تمتاز بعض المواقف إلى جانب صدقها الواقعي بكونها تقدم نماذج إنسانية ـ وحيث أن القرآن قد أنزله الله ليكون هداية ونوراً لذا فالمواقف تهدف إلى تربية الإنسان انطلاقاً من واقعه النفسي في مجرى حياته العملية ـ وذلك كما يلي :

١ ـ الصدق الواقعي :

تمتاز المواقف النفسية في القرآن الكريم بأنها مواقف صادقة الوقوع فهي حقيقة تاريخية في حياة الإنسانية ولذا فهي وثائق

علمية في تاريخ السلوك الإنساني للنفس ، وهذه ميزة قرآنية في دراسة النفس الإنسانية لأننا نجد أن بعض علماء النفس الغربيين المحدثين قد استندوا في دراستهم للنفس إلى أساطير خرافية ابتدعتها تصورات خيالية ثم غدت في العصور الحديثة مصدراً لدراسة بعض الافتراضات النفسية التي يحاول أصحابها تفسير السلوك الإنساني في ضوئها ـ كما نجد ذلك في أسطورة (أوديبس) التي تروي حادثة ابن فقد والديه وعاش بعيداً عن أهله فلما كبر وغدا قائد الجيش حارب والده وهو لم يعرف وقتل والده وتزوج من أمه وهي زوجة والده القتيل دون أن يعرف . ثم إن هذه الأسطورة جاءت تحقيقاً لنبوءة عراف إغريقي لأوديبس فجاء من بعدها (سيجمان فرويد) فجعل من هذه الأسطورة مسمى (عقدة أوديبس) حيث يتوحد الإبن بوالده ليظفر بأمه ـ

أما الباحث العلمي في دراسة النفس الإنسانية فإنه يجد في القرآن الكريم مواقف نفسية صادقة الوقوع السابق في التاريخ الصادق كما هو الحال في حادثة ابني آدم في موقفهما النفسي حين قتل أحدهما الآخر بدافع من الحقد والإثم . أو هي وقائع كان الناس يوم نزول القرآن الكريم يعيشون أحداثها كما في (حديث الإفك) حين جاءت الآيات القرآنية مرشدة لأفراد المجتمع لإنهاء ذلك الموقف النفسي العصيب في إحقاق البراءة ـ وفضح المنافقين وإقامة تشريع يحمي المحصنات . ويعاقب القاذفين . كما سنرى عند تفصيل ذلك عما قريب .

فالمواقف النفسية التي يوردها القرآن هي مواقف حقيقية بأشخاصها وأحداثها ومدلولاتها النفسية الإنسانية .

والله تعالى في قرآنه الخالد يقول للرسول الكريم عن القرآن نفسه :

« وبِالحَقِّ أنزَلْناهُ وبِالحَقِّ نَزَلَ وما أرْسَلْناكَ إلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَقُرْآناً فَرقْناهُ لِتَقْرَأَهُ على النّاسِ على مُكْثٍ ونَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً » . (١)

٢–بعض المواقف على الرغم من صدقها الواقعي تقدم نموذجاً نفسياً وسلوكياً لبعض النفوس الإنسانية – فبعض تلك المواقف تقدم مواطن القوة في النفس تأييداً وتعزيزاً كما تبين مواطن الضعف إرشاداً لصلاحها واجتناباً لها .

هي نماذج إنسانية سلوكية في مواقف نفسية قابلة للوقوع في كل جيل . قد يقال : إن تلك المواقف النفسية هي أحداث كانت ومضت يوم كان الإنسان يعيش في الجبال أو الصحراء ويركب الجمل أو الحصان . . فكيف تتكرر اليوم مع الإنسان المعاصر وهو يعيش في ناطحات للسحاب المكيفة المنيرة ويركب السيارة والطائرة ؟ !

للجواب نقول : إن إنسان اليوم في تكوينه الجسمي والنفسي والإنفعالي هو هو . كإنسان الأمس . نعم إن إنسان اليوم قد حقق إنجازات علمية تطبيقية هائلة بالمقارنة بما كان عليه الإنسان قبل ألفي عام – أو قبل ألف أو قبل مئة سنة – هذا حق . فإن أثاث منزل عصري لإنسان عادي اليوم فيه من الأجهزة المساعدة على يسر الحياة من أدوات كهربائية وصوتية وتصويرية وهاتف

---

١ – سورة الاسراء الآيتان (١٠٥–١٠٦) .

ومكيفات ما لم يكن متوفراً في قصر أحد القياصرة أو الأكاسرة أو الفراعنة مثلا . ولكن علم الحياة – وعلم التشريح الإنساني – وعلم وظائف الأعضاء يؤكد لنا أن الإنسان قبل آلاف السنين كما هو اليوم في لحمه وعظمه ودمه وأعصابه وحواسه وفي تكوينه النفسي الإنفعالي فيه الفرح والحزن . وفيه الرضا والغضب ، وفيه المحبة والبغض . وفيه القناعة والحقد . وفيه الشجاعة والجبن . وفيه الكرم والبخل . وفيه الخير ودوافعه والشر ودوافعه . أما الذي قد يطرأ عليه تأثير الحضارة الصناعية الحديثة هو الوسائل ، فالحقود قديماً يقتل المحقود عليه بحجر أو عصا . . واليوم قد يقتله بغازسام أومسدس بدون صوت – وكرم الإنسان قديماً يتجلى بإعطاء ناقة واليوم بتقديم سيارة ، أما التكوين النفسي للإنسان في جوهره ودوافعه وسعيه لإشباع توتره بما يتاح له من وسائل وأساليب فالإنسان هو الإنسان : وإليكم المثال القرآني للموقف النفسي التالي في سورة الكهف (٣٢ – ٤٤) .

« واضْرِبْ لهمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحَدِهِما جَنّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بينَهُما زَرْعاً » . ٣٢ .

إلى آخر الآية التالية :

« هُنَالِكَ الوَلايَةُ للهِ الحَقّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْر عُقبا » . الكهف ٤٤ .

فهذا موقف نفسي بين رجلين كلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس . – نموذج كل رأسماله ثروة تبطره ويظن أن المال خالد فينسى ربه الذي أنعم عليه وأنه راجع إليه . هذا النموذج ظالم لنفسه سيفقد كل نافع .

أما النموذج الثاني فهو لرجل مؤمن يعتز بإيمانه يرى النعمة دليلا على الله المنعم وسبيلا لشكره . (١)

فالإسلام لا يحرم الطيبات بل يدعو إليها ولكنه لا يجعلها موطن فخر يعتز به . ولا هدف حياة يسعى إليه ، بل الطيبات مدعاة لشكر المنعم ودافعة للعمل الصالح ومذكرة للباقيات الصالحات .

● **مواقف هادفة :**

ليست المواقف النفسية في القرآن واردة لمجرد العرض الفني الأدبي أو لمجرد التسجيل التاريخي البحت . بل إن جميع المواقف إنما كانت هادفة لغرض إرشادي تربوي . كما في بيان أن (الكفر بالله نهايته خسران) أو أن (الظلم عاقبته وخيمة) أو أن (البطر بالثروة المادية دون شكر لله المنعم الأول والدائم سيفقد معه صاحبه كل شيء نافع) .

– وإلى جانب هذا الهدف التربوي لبعض المواقف النفسية . فإن بعضها الآخر يكون تمهيداً لبيان الحكمة في تحديد تشريع ينظم الحياة بين الأفراد والجماعة . فموقف ابني آدم إذ حقد الأول على الثاني وهدده بالقتل ثم قتله فعلا . . هذا الموقف يهدف إلى ضرورة وجود تشريع يصون الحياة الإنسانية وكذلك في موقف

---

١ – قطب : سيد (فى ظلال القرآن) مجلد (٤) ص ٢٢٧٠ .

(حادثة الإفك) كان التشريع لحماية المؤمنات المحصنات الطاهرات من قذف الكاذبين الخاسرين ، وفي كل ذلك ضمان لأمن فردي وجماعي للأعراض والحياة ، وفي إطار كون المواقف النفسية في القرآن ذوات أهداف واضحة فإننا نجد أن بعض المواقف قد وردت أكثر من مرة في مواضع متعددة من القرآن مثل موقف (الأمومة) مع أم موسى وابنها الوليد وأخته في سورتي (طه) و (القصص) وكذلك موقف (معالم التكوين النفسي للإنسان وعداوة الشيطان له) في سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة الإسراء . علماً بأن تكرار ورود الموقف ليس تكراراً تطابقياً للكلمات والجمل كما يتبين ذلك عند مقارنة النصوص القرآنية للموقف الواحد . . إن هذا الورود المكرر لبعض المواقف ذو أهمية نفسية وتربوية مزدوجة كما يلي : (١)

١ — تكرار يؤكد وظيفة نفسية للمواقف القرآنية إذ يؤدي التكرار إلى إبراز جانب مهم في كل مرة يقدم بها القرآن ذلك الموقف بتسليط الأضواء المكثفة عليه بحيث عندما تتجمع تلك الجزئيات الموزعة فإنها تتعاون على تقديم الموقف النفسي العام بصورة متكاملة في جميع النصوص القرآنية الواردة .

٢ — كذلك يؤدي التكرار وظيفة تربوية إذ يعمل على تثبيت الفكرة العامة للموقف النفسي وقوة استحضارها لتكون ملازمة لذهن الإنسان مؤثرة في سلوكه العام . فالقرآن الكريم ليس كتاب سجل لتدوين أحداث التاريخ الإنساني وإنما هو

---

١ — قطب : محمد (دراسات قرآنية) ص ٢٤٥-٢٦١ وهو موضوع مفصل ومفيد .

كتاب هداية وإرشاد يتخذ من مواقف الإنسان منطلقات نفسية تربوية وتشريعية لتكوين الإنسان الفاضل والمتكامل .

● **أمثلة قرآنية لمواقف نفسية :**

يجد الباحث النفسي في القرآن عدة مواقف يستطيع أن يستشف منها انفعالات متمركزة حول محور عاطفي تتجلى فيه دوافع محددة تؤدي إلى أنواع من السلوك المناسب وذلك كما يلي من أمثلة :

الأول : (الأمومة) كما في موقف أم موسى من موسى الوليد وإلقائه في اليم رجاء سلامته ثم إرسال أخته تتقفى أخبار أخيها . . حتى عاد موسى إلى أمه لتقر عينها ولا تحزن وفاء بوعد الله الصادق .

ونجد هذا الموقف في موضعين من القرآن . . وفي كل مرة يتم تسليط تركيز على جانب خاص مما يجعل التكرار عامل تشويق نفسي وتذكير تربوي في تكامل قصصي لأطراف الموقف .

كما في سورة طه (٣٧ – ٤٠) خطاب موجه من الله تعالى إلى موسى ابتداء من :

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرَى ، إذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ ما يُوحَى . . » (٣٧ – ٣٨)

وختاماً في الآية :

« إذ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُول هَل أَدُلّكم عَلى مَنْ يَكْفُلُه ، فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمّكَ كَيْ تَقرّ عَينُها ولا تَحزَن . . . . » . (٤٠)

وكذلك في سورة (القصص) (٧ — ١٣) .

ابتداء من الآية السابعة :

« وأوْحَيْنَا إلى أمّ مُوسَى أنْ أرضِعِيهِ فإذَا خِفْتِ عليهِ فَألْقِيهِ في اليَمّ ولا تَخَافِي ولا تَحزَني إنّا رَادُّوهُ إليكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِين . » (٧)

وختاماً مع الآية :

« فَرَدَدْنَاهُ إلى أمّهِ كَيْ تَقَرّ عَيْنُهَا ولا تَحزَنَ وَلِتَعْلَمَ أنّ وَعْدَ اللهِ حَقّ ولكنّ أكثَرَهُم لا يَعْلَمُون» ١٣

الثاني : في موقف المرأة بين العمل عند الضرورة والسعي الأكيد للزواج السعيد كما في الآيات (٢٣ — ٢٩) من سورة القصص .

ابتداء :

« ولَمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أمّةً مِنَ النّاسِ يَسْقُون وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ ما خَطْبُكُما قَالَتَا : لا نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرّعاءُ وَأبُونَا شَيْخٌ كَبِير » . (٢٣)

وختاماً في الآية :

« فَلَمّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ وَسَارَ بِأهْلِهِ . . . » (٢٩)

الثالث : دافع الحسد القاتل الذي يفرق بين الأخوين .

كما في سورة المائدة في ست من آيات متواليات (٢٧ – ٣٢) وسيقدم البحث دراسة وافية لهذا الموقف في هذا الفصل .

الرابع : الغيرة بين الإخوة في مظاهرها السلبية السلوكيـــة ونتائج ذلك أيضا في موقف (يوسف عليه السلام وأخوته وصلة ذلك بوالدهم جميعاً (في سورة يوسف بالآيات) (٧ – ١٨) من الآية :

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ » . (٧)

وختاماً في :

« وجَاءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُم أَنْفُسُكُم أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ على ما تَصِفُونَ » . (١٨)

الخامس : الشائعة سلاح نفسي خبيث استخدمه المنافقون كما في (حديث الإفك) في سورة النور بالآيات (١١ – ٢٤) وسيقدم البحث دراسة مفصلة لهذا الموقف في الفصل التالي :

السادس : معالم التكوين النفسي للإنسان آدم عليه السلام وعداوة الشيطان له . وقد وردت جوانب هذا الموقف أكثر من مرة لأهمية هذا الموقف تذكيراً تربوياً وتكاملا في جزيئات الموقف النفسي العام كما يلي :

– في سورة البقرة في الآيات (٣٠ – ٣٨)

- في سورة الأعراف في الآيات (١١ ـ ٢٧)

- وفي سورة الإسراء في الآيات (٦١ ـ ٦٥)

السابع : موقف نفسي نموذجي لشخصيتين : . . .

كما في سورة الكهف (٣٢ ـ ٤٤) وقد سبقت الإشارة إليه في مميزات الموقف من هذا الفصل .

الثامن : دراسة للشخصية الباغية التي تتكرر في بعض الأنماط النفسية شخصية تطغى بما لديها من مال دون وازع إلى جانب الغرور العلمي ويعيش في قومه أفراد جبناء منافقون له يتمنون أن يكونوا مثله ويزداد قارون طغياناً ـ فإذا هو بعد قليل ينال جزاءه وتنخسف الأرض به ليكون عبرة لغيره وانتصاراً لأهمية الإيمان بالله منعماً ووليأ . . وقد ورد هذا الموقف في سورة القصص بالآيات (٧٦ ـ ٨٤) .

التاسع : (المقاطعة الإجتماعية طريقة نفسية في تربية بعض أفراد الجماعة الخاطئين) ـ هذا الموقف النفسي الذي استمر خمسين ليلة طويلة والذي تلخصه الآيات الكريمة (١١٧ ـ ١٢١) من سورة التوبة (١) .

● موقف نفسي قاتل :

تمهيـــــد :

هي حادثة تمثل الموقف النفسي ـ الذي يعتبر في هيكله العام نموذجاً يتكرر في بعض النفوس المنحرفة في كل تجمع إنساني

---

١ ـ د. الهاشمي : عبد الحميد (الرسول العربي المربي) ص ٣٠٣ ـ ٣٢٦ ـ دراسة مفصلة لهذا الموقف النفسي الاجتماعي .

متشابك العلاقات فالقرآن لم يذكر إسم قطبي الموقف فهما ابنا آدم كما لم يذكر الموقف زمان ومكان الحادثة – واكتفى بذكر السبب المباشر والأخير في قبول قربان أحدهما دون الآخر .

وفي تسلسل الأحداث والأحاديث يقدم الموقف نموذجين لشخصيتين – إحداهما هجومية عدوانية قاتلة . والأخرى متسامية مسامحة هادئة .

ويزداد هذا الموقف النفسي القرآني في نموذجيته المتجددة أنه كان تمهيداً لبيان كرامة النفس الإنسانية واحترام حقها في الحياة مع تشريع وقائي علاجي في مكافحة الجريمة وضمان الأمن النفسي للفرد والجماعة على السواء .

وإن خير تمهيد لهذا الموقف هو ذكر للآيات القرآنية الواردة فيه فهي ست متواليات من سورة المائدة :

« وَاتْلُ عليْهِم نَبَأ ابْنَيْ آدَمَ بالحَقِّ إذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ منْ أحَدِهما ولَمْ يُتَقَبَّل مِنَ الآخَرَ قالَ لأقْتُلَنَّكَ قالَ إنمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ منَ المتَّقِينَ ، لَئِنْ بَسَطْتَ إلىَ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أنا بِبَاسطٍ يَدي لأقْتُلكَ إني أخافُ اللهَ رَبَّ العالمينَ ، إني أُريدُ أَنْ تَبُوأَ بأثْمي وَإثْمِكَ فَتَكُونَ منْ أَصْحابِ النَّارِ وذلكَ جزَاؤُ الظّالمينَ ، فَطوّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخيهِ فَقَتَلَهُ فأصْبَحَ منَ الخَاسرينَ ، فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ في الأرْضِ لِيُرِيهُ كيْفَ يُوَاري

سَوْءَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكونَ مِثْلَ هذا الغُرَابِ فأُوَارِي سَوْءَةَ أَخي فأصْبَحَ مِنَ النَّادِمينَ ، مِنْ أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنَا عَلى بَني إسْرَائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ في الأَرْضِ فكأنّما قَتَلَ النّاسَ جَميعاً وَمَنْ أَحْيَاها فَكَأنّما أَحْيا النّاسَ جَميعاً وَلَقَدْ جاءَتْهُم رُسُلُنا بالبَيِّناتِ ثُمَّ إنَّ كثيراً منْهم بَعْدَ ذلكَ في الأَرْضِ لَمُسْرِفُون »(١) .

وفيما يلي دراسة تحليلية لهذا الموقف النفسي .

١ ـ السبب الدافع :

هو دافع نفسي دفين تعاني منه الإنسانية لدى بعض أفرادها المنحرفين إنه : الحقد أو الحسد المذموم ـ أو الضغينة أو الغيرة الآثمة . . أسماء مختلفة للدلالة على وجوه متعددة لدافع واحد نفسي كان السبب المباشر لوقوع أول جريمة بين إنسان وأخيه ابني آدم عليه السلام .

والدافع هو (الحقد) الذي يعتبر من الانفعالات المعقدة المتمركزة حول (الذات المتضخمة) والحقد نتيجة عدة انفعالات نفسية متضاربة لأنه يضم انفعال (محبة) الحاقد لأمر أو شخص يريده الحاقد لنفسه وحدها . كما يتضمن انفعال (الخوف) على ذلك المحبوب من الضياع والعجز عن حيازته . وهذا يتفاعل مع انفعال (الكراهية) لطرف آخر ينازع الحاقد كما يتفاعل

---

١ ـ سورة المائدة ٢٧ـ٣٢ .

مع خشية (الهزيمة) إذا ضعف الحاقد عن حيازته لذلك الأمر أو الشخص .

لذا فالحاقد يعاني من صراع انفعالي متوقد وهو متواصل يشغل على الحاقد كل حياته ويفسد عليه سواء السلوك واستقامة التفكير ـ وقديماً قيل : لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله . . فالحسد من جهة الانحراف النفسي يتضمن صراعاً بين (تضخم أنا) وبين (تهديد أنا) في نفسية الحاقد .

والقرآن الكريم في تصويره لهذا الدافع النفسي لا يذكر نوع القربان . كما لم يذكر سبب الخصام ولا مكانه ولا زمانه كما لم يذكر اسم الأخوين بل هما أخوان وابنا آدم ومع ذلك كان لدى أحدهما دافع نفسي حاقد وهما أيضاً كانا في مكان عبادة لتقديم القربان تقرباً إلى الله .

وحين تم القبول من أحدهما ولم يقبل من الآخر ، حينئذ استيقظ في نفسية الآخر دافع الحقد الحاسد على أخيه .

٢ ـ تهديد وانتقام :

حيث الحقد الحسود يشعر صاحبه بتهديد (كيانه الذاتي) (أنا) . . كما نجد ذلك في تهديد (نحن) في موقف إخوة يوسف عندما قالوا فيما يرويه القرآن عنهم :

« إذْ قالُوا لَيُوسُفُ وأخُوهُ أحَبّ إلى أبِينَا مِنّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إنّ أبانا لَفي ضَلالٍ مُبِين »(١) .

---

١ ـ سورة يوسف الآية ٨ .

وهذا التهديد المتوهم للشخصية الذي يعيشه الحاقد يدفعه إلى التعبير الإشباعي المتطرف ليفكر أول ما يفكر بالقتل وهو أشد مظاهر العدوان إذ يرى فيه الحاقد أن مشكلته تزول بزوال شخصية المحقــود عليه ، بيد أن هــــذا الإشباع المتطرف بالقتل قد يناله تخفيف كما في موقف إخوة يوسف حين قالوا :

« اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أَبِيكُم وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِين »(١) .

كما أنه في الحياة الاجتماعية الاضطرارية يتم إشباع الحقد أحياناً عن طريق الغمز واللمز والهمس والتحقير في ملأ . أو أن يتم إشباعه بطريق الشتائم الصريحة أو الدس والوشاية والوقيعة أو المزاح الثقيل والفكاهة الموجهة . أما في هذا الموقف فإن الأخ العدواني الشرير يقولها صراحة (لأقتلنك) بالتأكيد باداتين (اللام) في أول فعل القتل (والنون) المشددة آخره وهذا يدل على عزيمة القتل المتعمد المقصود وأنه ليس مجرد ثورة انفعالية ستنطفئ عما قريب . وهكذا نجد أن هذا الدافع النفسي المنحرف كان السبب في أول جريمة قتل عرفتها الإنسانية بين الأخوين حقداً من أحدهما على الآخر .

٣ ـ شخصية الاخ الشرير :

إن هذا الأخ كان يقوم بأداء عمل عبادي في تقديم القربان ولكن حيث أن دوافع الشر والحقد كانت قوية الكمون فإن أداءه للعمل التعبدي لم يكن كاملا فلم يكن من المتقين بدليل ذكر الآية لقول أخيه الصالح :

---

١ ـ سورة يوسف آية ٩ .

« إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينْ »(1) .

ثم إن هذه الآية البادئة لوصف هذا الموقف فيها :

« فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ »(2) .

بصيغة الفعل المبني للمجهول مرتين وفي هذا إشارة إلى أن الأخ الذي تم قربانه ليس له أثر مباشر في القبول حتى يتسبب في استحقاقه للقتل – ولكنها الدوافع العدوانية إذا توترت فإنها تتصنع الفرص لتجد المبررات لسلوكها العدواني – وهذا ما يصور بعض جوانب هذه الشخصية الشريرة لهذا الأخ الذي يتمادى في طريق الحقد فيدفعه إلى الحكم العاجل بقتل أخيه وإنه هو الذي سيقوم بذلك القتل انتقاماً واعتداءاً وكان مع هذا التهديد الذي يمثل ذروة الانتقام إصرار ثم تنفيذ عاجل متعمد . .

وهذا النمط من الشخصيات ذوات النفوس المنحرفة موجود في كل جيل من الناس بل ولعله في كل مجتمع . لذلك كان لا بد لكل مجتمع من تنظيمات تشريعية تحفظ الأمن الفردي والجماعي وقاية وعلاجاً .

٤ ـ شخصية الاخ الوديع :

تتجلى شخصية هذا الأخ في جوابه الفوري لأخيه عندما سمع تهديده إياه بالقتل . فقد كانت إجابة الأخ المسالم :

« إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِين » .

ففي هذا إشارة إلى أن قبول الله للقربان لم يكن لشخصه ذاتياً وإنما كان لعامل (التقوى) وفي هذا إرشاد لأخيه ليسلك

---

1 ـ سورة المائدة الآية ٢٧ . 2 ـ سورة المائدة الآية ٢٧ .

سبيل التقوى ليقبل الله منه ـ وهذا إرشاد لطيف دون جرح لكرامة أخيه(١) .

ثم يحاول الأخ التقي المسالم تهدئة غليان أخيه بأسلوب يشرح له سلوكه عند المواجهة فهو لا يقابل التهديد بتهديد . كما لا يقابل العمل الإجرامي بعمل آخر مماثل . . إنه فوق تقواه يخاف الله :

« **لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** »(٢) .

وفي تقديم (إلى) على (يدك) يد الأخ المهدد بالقتل وفي (إليك) وتقديم (يدى) إشارة نفسية حكيمة في القرآن الكريم إلى أن هدف الحسد الحاقد هو إزالة الشخص المحقود عليه والمحسود . بينما تأخير (إليك) في يد الأخ الصالح تشير إلى أنه لا يريد أذية أخيه . إنه يريد أن يخمد النار المتوقدة وأن يذكره بالأخوة بينهما . ولأن من بدأ بالشر ومن رده بمثله شراً كانا متقاربين في اتجاه الانحراف ثم يتابع الاخ الهادئ موعظة أخيه المهدد له بالقتل : إنه إن نجح بعملية القتل فسيكون من الظالمين أصحاب النار لأنه قد تحمل إثمين اثنين إثم قتل أخيه ومن قبله إثماً لم يقبل الله معه ما قدم من قربان أو إثم كل قاتل يأتي بعده لأنه قد سن سنة سيئة في العلاقات الإنسانية . وتتلخص هذه الشخصية في نفسية إنسان تقي يخاف الله . وناصح لأخيه ألا يفعل الإثم . . وأنه لا يقابل الشر بشر . . وهذا هو الأخ الناصح الصالح . .

---

١ ـ قطب : سيد (فى ظلال القرآن) مجلد (٢) ص ٨٧٦ .
٢ ـ سورة المائدة الآية ٢٨

٥ ـ تطويع الجريمة :

تتلخص ذروة الميول الحاقدة في اندفاعها القوي المباشر نحو قمة الإجرام العدواني في نفسية الأخ الشرير كما يصف القرآن الكريم في الآية الموجزة المعجزة :

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ »(١) .

فعملية تطويع الجريمة تقوم بها النفوس المنحرفة لتجعل كل جريمة مهما عظمت سهلة وقريبة ولا مناص منها . فالتطويع عملية نفسية تجعل البعيد قريباً . والصعب سهلا . والمستهجن أمراً عادياً أو مقبولا . .

تلك هي نفسية المجرم حين يضع نفسه في قوقعة الإجرام فلا يفكر ولا يشعر ولا يستحسن إلا الإجرام وتنقلب كل الموازين والمقاييس .

يقضى على المرء في أيام محنته   حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ففكرة الجريمة غدت قريبة المنال سهلة التنفيذ ، فطوعت له نفسه قتل أخيه .

وفي ذكر الآية بأن القتل سيقع على (أخ للقاتل) وليس على غريب مزيد من عوامل الموعظة لأن الإنسان عادة يميل إلى حماية أخيه من أعدائه كما فيه من الوصف النفسي لهذا الموقف المنحط الشرير الذي يعيشه هذا الأخ العدواني مع أخيه السمح الكريم ولقد تكرر ذكر الأخوة ثلاث مرات متقاربات

---

١ ـ سورة المائدة الآية ٣٠ .

ومثل هذه الإشارة القرآنية إلى تأكيد الأخوة وواجب رعايتها حماية قد وردت في التنفير من خلق نفسي ذميم هو الغيبة في ذكر الإنسان لغيره بما يكره باعتبار أن المؤمنين أخوة فلا يجوز أن ينهش أحدهم عرض أخيه أو سمعته أو كرامته — لا سيما إذا كان ذلك الأخ ميتاً . . والمراد بالموت في هذه الآية هو الغياب وعدم المواجهة كما في قوله تعالى :

« وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يأكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ تَوّابٌ رَحِيم »(١) .

وهكذا كانت الجريمة إشباعاً لدافع نفسي شرير عدواني

٦ ـ الخسران والندم :

تشير الآيات الواردة في وصف هذا الموقف النفسي إلى صفتين مهمتين (الحسران والندم) برزتا بكل وضوح في شخصية الأخ العدواني القاتل لأخيه .

وهاتان الصفتان إذا استحضرهما الإنسان العاقل فإنهما يساعدانه على كظم كثير من غيظه والابتعاد عن مزالق الحقد ومساقط الحسد اللئيم قبل أن ينحدر إليها .

الصفة الأولى برزت بعد تنفيذ قتل أخيه . فماذا ربح القاتل الحاقد بإزاحة أخيه الذي لم يحاول أذيته في شيء . . (فأصبح من الخاسرين) . خسراناً متعدداً شاملا : فهو خاسر لنفسه في إجرامه . وخاسر لأخيه فالأخ معين وناصر . وخاسر للدنيا فحياة القاتل إن سلمت من الثأر أو الجزاء فلا يسعد معها القاتل ، ثم هو خاسر للآخرة يوم العدل والجزاء .

١ ـ سورة الحجرات الآية ١٢ .

أما الصفة الذميمة الثانية (فأصبح من النادمين) والذي يظهر أن القاتل علي وجه العموم بعد أن يتم تنفيذ الجريمة في الشخص المحقود عليه يدرك متأخراً أنه بعد القتل لم ينل الموضوع الرئيسي الذي دفعه للقتل – وليس هذا ندم توبة وإلا لقبل الله التوبة .

٧ – درس للانسان من الحيوان :

هذا موقف نفسي جانبي من الموقف العام و ذو أهمية خاصة لأنه يذكر إحدى خواص الإنسان الأساسية وهي دافعه نحو التقليد لما يشاهده من سلوك الكائنات الأخرى – فالإنسان يميل لمحاكاة سلوك الآخرين مما يروق له – ولقد قدمت الآية هذا الميل متجسداً في تقليد الإنسان لسلوك حيواني نفعه في دفن جثة أخيه الذي قتله .

« فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبْحثُ في الأرْضِ لِيُرِيه كيْفَ يُوَاري سَوْأةَ أخِيهِ قال : يا وَيْلَتَا ! أعَجَزْتُ أنْ أكُونَ مثلَ هذا الغُرَابِ فأواري سَوْأةَ أخي فأصْبَحَ مِنَ النّادِمين »(١) .

إنه غراب قتل غراباً آخر أو أنه قد وجده ميتاً . فاندفع الغراب يحفر في الأرض ودفن في الحفرة أخاه الغراب وأهال عليه التراب ستراً . ثم كل ذلك والأخ القاتل يرى ما فعل الغراب وقام بنفس العمل مع جثة أخيه المقتول وواراه تحت التراب ستراً . ويظهر أن الندم الذي ظهر على القاتل حينذاك لم يكن

---

١ – سورة المائدة الآية ٣١ .

ندم توبة من القتل بل لعدم معرفته دفن القتيل وفي سياق هذه الخصوصية الإنسانية الأولية في حب التقليد والاستفادة منه نذكر أن غير قليل من التطبيقات العلمية الكبرى في عالم الصناعة كانت في أسسها العلمية مستمدة من تقليد بعض الكائنات الحية التي يشاهدها الإنسان . فتقليد البط في حجم جذعه وشكله مع تكوين أقدامه وحركتها أثناء سيره على سطح الماء جعل الإنسان يصنع السفن . وكذلك السمك في معيشته تحت الماء وحركاته صعوداً وغوصاً والتفافاً كانت منطلقاً لصناعة الغواصات .

ومثل ذلك مع الطائر في شكله العام وخفة وزنه بالمقارنة مع حجمه وحركة أجنحته ومواضعها أعان الإنسان في وضع غير قليل من نظريات الطيران . وفي صناعة الطائرات .

٨ ـ الأمن الفردى والجماعي :

هذا الموقف النفسي في القرآن مثل غيره من المواقف ليس لمجرد التسجيل التاريخي الصادق فحسب بل هو أيضاً لهدف تربوي في سلامة النفس الإنسانية فالنفوس المسالمة يكفيها التوجيه الهادئ والموعظة الحسنة .

أما النفوس العدوانية التي يتحجر فيها الفكر الدليم والعاطفة النبيلة فلا بد لها من أن تعلم عاقبة عدوانها وأن الجريمة لا تجدي . . وعند ذاك فإنها تحاول الكف من اندفاعها الأعمى في إشباع إجرامي لدوافع غير سوية .

فالعقوبة تهب الفرد المسالم أمناً على حياته . كما تهب الفرد العدواني وازعاً يذكره بعاقبة أمره . ولقد كان صدر الآية ـ إشارة واضحة إلى الهدف من ذكر الموقف النفسي العدواني ـ

والتعبير القرآني غاية في التوجيه النفسي البليغ فقتل نفس واحدة في غير حق شرعي هو قتل للناس جميعاً لأنه اعتداء على حق إنساني عام مشترك في (الحياة) وأن حماية الحياة ورعايتها لنفس واحدة هي رعاية للحق العام في حياة الناس جميعاً فالأمن الفردي نتيجة للأمن الجماعي .

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً »(1) .

● **كلمة النفس فى القرآن الكريم :**

لقد وردت كلمة « نفس » في القرآن الكريم أكثر من ٣٠٥ ثلاثمائة وخمس مرات وفي أكثر من أربعين سورة ولقد وردت بصيغة المفرد والجمع بصورتين نفوس وأنفس - كما وردت مضافة لضمير المتكلم والمخاطب والغائب المذكر والمؤنث وجمعاً وأفراداً أيضاً ، معرفة بأل ونكرة .

وفي دراسة استعراضية لمدلولات - كلمة - نفس في القرآن - نجدها متعددة ولعل أهمها إثنا عشر مدلولا كما يلي :

١ - النفس بمعنى « الذات » الإلهية المقدسة كما في قوله تعالى :

---

١ - سورة المائدة الآية ٣٢ .

« فَقُل سَلامٌ عليكم كَتَبَ رَبّكُم عَلى نَفْسِهِ الرّحْمَةَ أنّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُم سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فإنّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ »(١) .

وأيضاً قوله تعالى :

« وَيُحذّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَؤُوفٌ بالعِبَادِ »(٢) .

٢ ـ (النفس) بمعنى الذات الإنسانية البشرية ككائن حي في وحدة متكاملة .

مثل قوله تعالى :

« لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا لَهَا ما كَسَبَتْ وعلَيْها ما اكْتَسَبَتْ »(٣) .

وقوله تعالى أيضاً :

« أتأمُرُونَ النّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُم وأنتم تَتْلُونَ الكِتَابَ أفلا تَعْقِلُون »(٤) .

ولقد ورد في آية واحدة كلمة (نفس) مرتين للدلالة على الذات الإلهية وأيضاً للدلالة على الذات الإنسانية ـ كما في قصة عيسى بن مريم عايه السلام .

---

٢ ـ سورة الانعام الآية ٥٤ ·
١ ـ سورة آل عمران الآية ٣٠ ·
٣ ـ سورة البقرة الآية ٢٨٦ ·
٤ ـ سورة البقرة الآية ٤٤ ·

قالَ سُبْحانَكَ ما يكُونُ لي أنْ أقُولَ ما لَيْسَ لي بحَقّ إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فقد علمته تَعْلمُ ما في نَفْسي ولا أعْلمُ ما في نَفْسِكَ إنّكَ أنْتَ علاّمُ الغُيُوب»(١) .

٣ ــ النفس ــ بمعنى أصل الإنسانية الأول ــ هو آدم عليه السلام .

كما في قوله تعالى :

« يا أيّها النّاسُ اتّقُوا ربّكُم الذي خلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وخلَقَ منْها زَوْجَهَا وبَثّ منْهما رجالاً كثيراً وَنِساءً واتقُوا اللهَ الذي تَساءلُونَ بهِ وَالأرْحامَ إنّ اللهَ كانَ عليْكُم رَقيباً »(٢) .

وقوله تعالى :

« وهُوَ الذي أنْشَأكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فمُسْتَقَر وَمُسْتَوْدَعٌ » (٣) .

٤ ــ (النفس) بمعنى ضمير الإنسان وطويته وباطنه وعن نجوى النفس مثل قوله تعالى :

« لله ما في السّموات وما في الأرْضِ وَإنْ تُبْدُوا ما في أنفُسِكم أو تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بهِ اللهُ »(٤) .

---

١ ــ سورة المائدة الاية ١١٦ .
٢ ــ سورة النساء الاية ١ .
٣ ــ سورة الانعــام الاية ٩٨ .
٤ ــ سورة البقرة الآية ٢٨٤ .

وقوله تعالى أيضاً :

« وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُول »(١).

٥ ـ النفس الأمارة بالسوء باعتبارها أحد أنواع النفس في جانبها السلبي حين تأمر صاحبها بسوء أو شر من انحراف أو شح أو هوى كما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع عزيز مصر وامرأته بعد شهادة الجميع ببراءة يوسف الشاب عليه السلام :

« ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ * وما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيم »(٢) .

وقوله تعالى أيضاً :

« إِنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وما تَهْوَى الأنفُس ولَقَد جاءَهُم مِن رَبِّهِم الهُدَى »(٣) .

٦ ـ النفس : عامل تغرير وتعزيز للأقدام على أمور لا يجوز القيام بها مثل التسويل في تزيين مزالق السلوك الخاطيء أو الهابط أو المنحرف .

كما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته بعد أن بررت لهم أنفسهم منافع إلقائه في البئر ليتخاصوا منه . ثم ما خدعتهم به نفوسهم من تقديم حجج واهية لكل ذلك .

---

١ ـ سورة المجادلة الآية ٨ . ٢ ـ سورة يوسف الآية ٥٢ـ٥٣ .
٣ ـ سورة النجم الآية ٢٣ .

« وَجاءُوا على قَميصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سوّلتْ لَكُمْ أنفُسُكُم أمْراً فَصَبْرٌ جَميلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ عَلى ما تَصِفُون »(١) .

٧ ـ النفس اللوامة الّتي تؤنب صاحبها على ما فرط وأخطأ فهي تمثل نوعاً من النفوس حين تستيقظ مثل قوله تعالى :

« لا أقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامةِ ★ ولا أُقْسِمُ بالنفْسِ اللوّامة ★ أيَحْسَبُ الإنْسَانُ ألَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ★ بَلى قادِرينَ عَلى أنْ نُسَوّيَ بَنَانَه »(٢) .

٨ ـ النفس المطمئنة :

وهي النفس المستقيمة الّتي يرضى الله عنها ويباركها والّتي هي راضية ومطمئنة في علاقاتها مع الله تعالى :

« يا أيَتُها النَفسُ المُطْمَئِنَة ★ ارْجِعي إلى رَبّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيّة »(٣) .

وهذا التبادل في الرضى في علاقة الإنسان بربه . . يمثل أعلى درجات الاطمئنان النفسي والأمان الدائم . . وفي تبادل الصحبة في هذه الحياة الدنيا . . كما في قوله تعالى :

---

١ ـ سورة يوسف الآية ١٨ .

٢ ـ سورة القيامة الآية ١ـ٤ .

٣ ـ سورة الفجر الآية ٢٧ـ٢٨ .

« يا أيّها الذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُم عَنْ دينِهِ فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبّهُم وَيُحِبّونَه أذِلّةٍ عَلى المُؤمنينَ أعِزّةٍ عَلى الكافرين »(١) .

ثم في الدار الآخرة كما في قوله تعالى عن المؤمنين الصادقين . .

« رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذلكَ الفَوْزُ العَظيم »(٢).

٩ – النفس ويراد بها حينا الجوانب المكتسبة من الشخصية الإنسانية في مظاهر السلوك – وعمليات التفكير – وأنماط الخلق كما في قوله تعالى :

« ذَلِكَ بأنَّ اللهَ لم يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أنْعَمَهَا عَلى قَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بأنفُسِهم وأنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَليمٌ »(٣)

وقوله أيضاً :

« إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرَ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم»(٤)

١٠– النفس بمعنى ما تحمله من دوافع وحاجات ورغبات سواء أكانت فطرية وراثية تتقبل التعزيز أو التعديل أو كانت مكتسبة تنتظر التنشئة والتوجيه مع بيان لمسئولية الإنسان في ذلك . كما في قوله تعالى :

« وَنَفْسٍ وما سَوّاها ★ فألهَمها فُجُورَهَا وَتَقْواها ★ قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكّاها ★ وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها » (٥)

---

١ – سورة المائدة الآية ٥٤ .
٢ – سورة المائدة الآية ١١٩ .
٣ – سورة الانفال الآية ٥٣ .
٤ – سورة الرعد الآية ١١ .
٥ – سورة الشمس الآية ٧–١٠ .

وقوله تعالى أيضاً :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى » (١)

١١ـ النفس بمعنى الروح التي هي عماد الحياة العضوية والوظيفية والتي بذهابها يفقد الكائن الحي حياته . كما في قوله تعالى :

« اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرسِلُ الأُخرى إلى أجلٍ مُسَمّىً إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»(٢)

١٢ـ النفس الإنسانية في الإشارة إلى جانبها المادي العضوي من حيث الفروق الجنسية بين الذكر والأنثى في الإنسان وكذلك في عالم النبات . وأيضاً في العوالم الأخرى حيث السالب والموجب في الكهرباء والذرة وغيرها .

« سُبْحَانَ الذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِم وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ » (٣)

وموجز القول : فإن كلمة (نفس) في القرآن الكريم باستثناء دلالتها على الذات الإلهية فإنها تدل على (الإنسان) الكائن الحي المتكامل في جميع مكوناته الجسمية والفكرية والسلوكية وفي مقوماته الوراثية والمكتسبة وفي دوافعه وميوله وما هو مستعد له من تعزيز وإعلاء أو انحراف أو هبوط .

---

١ ـ سورة النازعات الآية ٤٠ـ٤١ ٢ ـ سورة الزمر الآية ٤٢ .
٣ ـ سورة يس الآية ٣٦ .

الفصـــل الســـادس
المواقف النفسية فى القرآن

(الجزء الثاني)

موقف عصيب فى الحياة النفسية الاجتماعية

- تمهيد عام .
- خلاصة الموقف العام .
- موقف الحاقدين المنافقين .
- موقف السيدة الطاهرة البريئة .
- الرسول الزوج الحبيب .
- الرجل المؤمن المتهم البريء .
- موقف الوالدين .
- موقف المجتمع المسلم .
- ختام نفسي تربوي .
- قراءات مهمة . . .

موقف عصيب

في الحياة النفسية الاجتماعية

تمهيد عام :

لعل هذا الموقف كان أشد المواقف تعقيداً وحساسية واجهته الحياة النفسية الإجتماعية للمؤمنين والمؤمنات في المدينة المنورة في حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وتتجلى حساسية هذا الموقف النفسي لأنه قد حاول مس القيادة النبوية في عقر دارها كما حاول مس الصلابة النفسية في التماسك الإجتماعي للصحابة الكرام .

وعلى الرغم من أن هذا الموقف قد انتهى بظهور الحق وانتصار البراءة الطاهرة وجزاء المنافقين الحاقدين فإن هذا الموقف يظل درساً حياً في كل مجتمع إسلامي لتربية النفوس الإنسانية ووقاية المؤسسات الإجتماعية .

كان هذا الموقف في أعقاب غزوة بني المصطلق من بني خزاعة في شهر شعبان ولقد انتصر المؤمنون عليهم نصراً مؤزراً في جميع المراحل . فأسرعوا بالعودة إلى المدينة فرحين ليدركوا رمضان في المدينة مع أهليهم لتتم الفرحة بنصر الله المبين .

لكن المنافقين الذين صاحبوا المسلمين في هذه الغزوة أرادوا أن لا تتم فرحة المؤمنين فاستغلوا حادثتين أسوأ استغلال لنفث أحقادهم وتدبير مكايدهم ــ أما الحادثة الأولى فسيذكرها البحث فيما بعد ولقد أخمد الرسول صلى الله عايه وسلم نارها قبل أن

تستفحل وقضى عليها في المهد على الرغم من أن نارها ظلت كامنة تحت الرماد في نفوس المنافقين وكبيرهم .

ولنبدأ بالحادثة الثانية فهي الكبرى وهي موضوع البحث بالتفصيل .

● **خلاصة الموقف العـام :**

يعود الرسول صلى الله عليه وسلم والجيش الإسلامي ومعه من أهله السيدة عائشة رضي الله عنها و في إحدى مراحل التوقف ذهبت عائشة في الخلاء لقضاء الحاجة فوقع منها عقدها فرجعت تبحث عنه فتأخرت فسار الجيش دون أن يعلم بغيابها أحد . وحمل الركب هودجها على البعير ظانين أنها فيه لأنها كانت رشيقة .

تعود عائشة إلى المكان لتجد الجيش قد ارتحل فتبقى في المكان راجية أن يتفقدها الركب فلا يجدونها فيعودون .

وبينما هي كذلك منتظرة غلبها النوم –وكان أحد المؤمنين المجاهدين وهو (صفوان بن العطل) يسير وراء الجيش يتابعه فإن وجد متاعاً ترك أو سقط جمعه لأصحابه .

فلما وصل المكان وجد عائشة نائمة فعرفها فجعل يتلو : « **إنا لله وإنا إليه راجعون** » مراراً حتى استيقظت فأعانها على ركوب البعير ومشى على قدميه يقوده حتى وصل المدينة في رابعة النهار ولقد شاهد ذلك كبير المنافقين (عبد الله بن أبيّ) فسأل : (من هذه ؟ قيل له : (عائشة) فجعل يقول : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها – وتعاون المنافقون في ترديد هذه الشائعة حول عائشة وصفوان رضي الله عنهما وعاش المجتمع الإسلامي في المدينة شهراً كاملا في أجواء هذا الإفك

حتى أنزل الله وحياً ببراءة السيدة عائشة كما أنزل تكذيباً للذين جاءوا بالإفك .

ومثل هذا الحادث لا يثير شكاً أو اتهاماً لدى الأفراد الشرفاء فلقد هاجرت مثلا أم سلمة مع ابنها الوليد في حجرها وحدها من مكة إلى المدينة مئات الأميال فلما رآها في الطريق عثمان بن طلحة وهو مشرك أبت عليه مروءته أن يتركها وحدها في هذا السفر الطويل فاصطحبها في هذه الرحلة حتى أوصلها المدينة المنورة ثم عاد وقد رآه الناس فما تكلم أحد في المدينة .

ذلك أن شهامة الرجولة الأبية تقوم بحماية المرأة الضعيفة التي لا حامي لها فكيف إذا كانت تلك المرأة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وبنت الصديق والرجل الذي أعانها على العودة صحابي يؤمن بالله وبالرسول . لكنهم المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ ـ جرثومة الكيد والضغائن .

وسنتابع دراسة هذا الموقف الكبير العام عن طريق المواقف الجزئية التي كانت لأشد الأطراف الإنسانية اتصالا مباشراً كما يلي :

١ ـ موقف الحاقدين المنافقين :

في ذلك المجتمع المؤمن الآمن في المدينة كانت فئة حاقدة تتظاهر بالإسلام نفاقاً وتبطن الكفر والكراهية كل همها إثارة الفتن وإشاعة الأكاذيب التي يحاولون بها زلزلة المجتمع من الداخل . ولهذه الفئة المنافقة أوكارها وأساليبها في الدس والمناورة والتآمر . وكان دورها في حادثة الإفك كما يلي :

أولا ـ خرج الجيش الإسلامي من المدينة بعد أن علم المسلمون أن بني المصطلق يجمعون القبائل لحربهم في السنة الخامسة للهجرة

وفي شعبان خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ومعه جمع كبير من المسلمين وكان معهم في هذه المرة كثير من المنافقين وكان اشتراكهم مع المؤمنين تضليلا فإذا انهزم المسلمون أسرعوا بالعودة شامتين – وإذا انتصر المسلمون طالبوا بنصيبهم من الغنائم .

ثانياً – كان النصر كاملا للمؤمنين نصراً عسكرياً حاسماً بهزيمة بني المصطلق وهم بطن من خزاعة برئاسة الحارثة بن أبي ضرار . وكان أيضاً نصراً سلمياً رائعاً . . إذ تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم إحدى الأسيرات وهي ابنة الحارثة نفسه واسمها (حوريه) فأطلق المسلمون كل الأسرى إكراماً للمصاهرة النبوية وكان هذا دافعاً لدخول كثير منهم في الإسلام .

ثالثاً – لقد امتلأت قلوب المنافقين غيظاً وحقداً أن يشاهدوا النصر الكامل للمسلمين وأن يروا سرعة انتشار الإسلام في بني المصطلق وخزاعة وقد غدوا صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم والآية التالية تصور بعض خلق المنافقين :

« إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » . (١)

رابعاً – هؤلاء المنافقون وهم في طريق العودة بعد انتصار المؤمنين . وقد بلغ بهم الخبث مداه والغيظ أشده جاءتهم حادثة بسيطة بين فردين مسلمين حاول المنافقون استغلالها أسوأ استغلال لإشباع حقدهم .

---

١ – سورة آل عمران الآية ١٢٠ .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم علم بالأمر وتدخل مسرعاً وحسم الأمر مباشرة دون ذيول : ففي طريق عودة الجيش الظافر على ماء للسقيا جرى ازدحام بين أجير لعمر بن الخطاب وحليف لبني الخزرج وتطور الازدحام إلى خلاف بينهما وإلى استغاثة الحليف (يا معشر الأنصار) ونداء الأجير (يا معشر المهاجرين) وتسارع نفر من هؤلاء وأولئك وكاد يحدث القتال بين جناحي المؤمنين وسمع ذلك الصراخ رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج مسرعاً يقول : (ما بال دعوى الجاهلية دعوها انها مفتنة) وأدرك المتسرعون خطأهم فسكنوا وتم الصلح بين الأجير والحليف .

وقد علم المنافقون بالحادثة بعد انتهائها وأسفوا على خمود نارها بيد أن كبير المنافقين (ابن أبيّ) وهو خزرجي جعل يثير النفوس ويوقظ الفتنة وهو يقول (والله ما رأيت كاليوم مذلة) .. ويقول : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .

ويبلغ هذا للرسول ويشيع ذلك بين المؤمنين ويرى بعضهم أن يقتل (ابن أبيّ) — ويأبى ذلك الرسول ويقول :
(فكيف . . يا عمر . . إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) .

وأمر الرسول برحيل الجيش مسرعاً تحاشياً لعودة نار الفتنة لا سيما أن ابن كبير المنافقين هو مؤمن صالح انه عبد الله . وقد علم بكيد أبيه للرسول والمؤمنين فقال :

(يا رسول الله . انه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه . فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك

رأسه . فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني . وأني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله . فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمناً بكافر فأدخل النار) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا) .

خامساً – ويزداد حقد كبير المنافقين بانكشاف كيده والتئام شمل المسلمين بل ان ابنه المؤمن عبد الله أعلن استعداده لقتل والده المنافق ولقد ازداد ذلك الحقد عندما نزلت سورة (المنافقون) وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وبيان مكائدهم . مع بيان طرائقهم في التضليل بإعلان إسلامهم والقيام بأركانه ظاهرياً وإضمار الكفر الشديد بأسلوب المراوغة والتآمر .

وحين افتضح أمر (عبد الله بن أبيّ) في قومه الخزرج وعفو رسول الله عنه . ازداد نفاقاً وحقداً . . لا سيما عندما عاد الجيش إلى المدينة وقف ابنه عبد الله على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه . فلما وصل أبوه (ابن أبيّ) قال له ابنه : وراءك ! فقال : مالك ؟ ويلك ! فقال والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز . وأنت الذليل ! فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم ختاماً حيث أنه كان يسير أواخر الجيش . شكا إليه (ابن أبيّ) ما فعل ابنه فقال عبد الله ابنه : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الإبن : (١)

---

١ – قطب : سيد (فى ظلال القرآن) المجلد (٦) ص ٣٥٧٥ ، ٣٥٧٧ .

أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجز الآن .
وكان ذلك تنفيذاً لقوله تعالى :

« يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْهَا الأذَلَّ وللهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ وللمؤمِنِينَ ولَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ » (١)

٢ ـ موقف السيدة الطاهرة البريئة :

هي ابنة الصديق أبي بكر . عاشت مع أبيها الرجل المستقيم الرفيع ثم هي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي لا تزال آنذاك فتاة شابة في السادسة عشرة من عمرها ثم ها هي تتهم في أعز ما يمس المرأة في شرفها وتتهم في وفائها المخلص لزوجها والذي تؤمن به رسولا .

انها ترمى في شرفها وإخلاصها وهي تعلم كل العلم أنها بريئة ولا تجد ما يثبت براءتها إلا ما ترجو من الله الذي لا يخفى عليه خافية ويعلم السر والنجوى .

كل من حولها من الناس فريقان فريق يعلم براءتها ولكن يسمع الشائعات التي تفرض نفسها على الآذان فرضاً . وفريق آخر ضعيف فأثرت فيه الشائعة فهو يرددها ولو كان غير مصدق لما يردده لسانه من مضمون الشائعة .

والسيدة الطاهرة البريئة تعيش أشد أيام حياتها شهراً كاملا . أما المجتمع الإسلامي الأول فقد زلزلته هذه الشائعة الخبيثة لأنها تمس أطهر بيت وأكرم أسرة .

---

١ ـ سورة المنافقون الآية ٨ .

تقول عائشة رضي الله عنها تصف نفسيتها أصدق وصف لما تعانيه سيدة طاهرة بريئة تتهم ظلماً وعدواناً . وتحكي ذلك عن نفسها وتصف آلامها المحرقة مخاطبة زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووالديها بعد استجوابها .

(فقالت : إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثاً تحدث الناس به واستقر في نفوسكم . وصدقتم به . فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة ، لتصدقني . فو الله ما أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال :

« فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ عَلى مَا تَصِفُون » .

٣ ـ موقف الرسول الزوج الحبيب :

رسول الله هو النبي الذي تؤمن به عائشة وتفديه بكل ما تملك ثم هو زوجها الذي يحبها ويغار عليها ـ ويعلم أنها سيدة طاهرة ولكنه إنسان يسمع الشائعة التي تمسه . . فلا يملك آنذاك أي دليل على البراءة . . ولكنه لا يصدق الشائعة أيضاً يقول لها عليه الصلاة والسلام في عنفوان الأزمة :

(أما بعد فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا . . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ـ وإن كنت ألمحت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه) .

هذه قمة في العظمة النبوية . . انه وهو في صميم الأزمة النفسية الإجتماعية يقوم بواجب الرسالة في صلة الإنسان بربه

حتى ولو كان عاصياً ليرجع إلى الله – فالله تواب ورحيم ولنا أن نتصور الآلام التي عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يمثل الطهارة في نبعها الأصيل الذي يفيض على أهله وأمته رجالا ونساء – ثم هو الآن يرمى بشائعات تستمر شهراً طويلا لا يريد أن يحسمها إلا بدليل قطعي . ويلجأ الرسول إلى ألصق الناس – ابن عمه وكفيله علي بن أبي طالب فإنه يشير بالتثبت ثم ان النساء كثير .. أما أسامة بن زيد فيقول هم أهلك يا رسول الله . ولا نعلم والله إلا خيرا . .) .

وعندما يزداد الموقف النفسي ألماً لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج للمسجد ويصعد للمنبر ويقول :

(من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا . . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا . . وما كان يدخل على أهلي إلا معي . .) .

فيسمع الحاضرون ذلك وتقوم منافرة جارحة بين الأوس والخزرج في المسجد مما يدل على أن الجو النفسي والاجتماعي لا يزال متوتراً متحفزاً وهكذا يعود الرسول صلى الله عليه وسلم إلى منزله يترقب رحمة الله وهديه وفرجه فلقد آلمه من آذاه في عرضه واتهم زوجته الطاهرة . واتهم مؤمناً بالله يعرف الرسول طيبة نفسه . كما يتألم الرسول لما كان يعانيه المجتمع المسلم آنذاك من زلزلة نفسية أفقدته غير قليل من توازنه وثقته وإلى أجل قريب .

تلك كانت ذروة الموقف لدى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

٤ ـ الرجل المؤمن المتهم البريء :

انه صفوان بن المعطل مسلم حسن الإسلام . مجاهد في سبيل الله يمثل الصحابي الشريف الأبيّ . ان مثل هذا الرجل وقد اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون في عمله يسير مقتفياً آثار الجيش الإسلامي مفروض فيه بداهة أن يكون مثلا عالياً في الأمانة والإستقامة لأنه سيقوم بالتقاط ما سقط ـ أو جمع ما ضاع من أشياء الركب ـ وأمانة العرض أعلا أمانة واستقامة الخلق أقوى استقامة .

هذا الرجل الأمين يكون إحدى ضحايا هذا الإفك المبين فكم تحمل وصبر وهو يعيش فترة الإتهام الظالم وهو البريء المظلوم يقول : سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط . .) .

٥ ـ موقف الوالدين :

الوالد هو أبو بكر الصديق شيخ وقور طيب القلب هو صديق الرسول قبل البعثة ثم هو مؤمن به نبياً بعد البعثة ثم زوج ابنته العزيزة ، هذا الرجل النبيل الشهم يرمى في شرفه لأنها ابنته قبل أن تكون زوجة يصبر ثم بعد صمت أليم طويل يقول :

(والله ما رمينا بهذا في جاهلية . أفنرضى به في الإسلام وتلجأ إليه ابنته العزيزة المتهمة البريئة وهي مريضة ترجوه أن يشرح موقفها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيجيب وهو في حيرة أليمة (والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم) .

أما الوالدة السيدة أم رومان فيبلغ الألم والمرارة مداها حتى ترى ابنتها الشابة المتزوجة من أكرم رسول تراها تبكي وهي مريضة فتحاول أن تخفف جراحات الأزمة فتقول لابنتها :

(يا بنية هوني على نفسك الشأن . فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها) .

وتلجأ البنت لأمها علها تجد فيها القوة لتشرح موقفها عند رسول الله فتردد الأم قول زوجها والد البنت :

(والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم) .

٦ ـ موقف المجتمع المسلم :

انه مجتمع مسلم . . فيه أقليات منافقة حاقدة تتظاهر بالولاء . ولكنها تتحين الفرص للكيد والمؤامرات ولقد عاش المجتمع خلال هذا الشهر المديد أزمة نفسية اجتماعية لم يعهدها من قبل أبداً . لأنها تمس القيادة المطلقة الطاهرة في أعز ما يتصل بها وانقسم الأفراد إلى فئات :

فئة تثق كل الثقة في طهارة السيدة عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تثق بطهارة أخيهم الصحابي المؤمن : (صفوان) ويمثل هذه الفئة أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه إذ جاءته امرأته أم أيوب فقالت : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها قال : نعم وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت أفعله قال : فعائشة والله خير منك . . .

وهناك فئة أخرى وقفت تتسمع إلى تلك الشائعات وترددها وتساعد بطريقة مقصودة أو غير مقصودة على نشرها ــ ونشر الشائعات كثيراً ما يصاحبه زيادة ومبالغة في الأخبار المتعلقة بها ويمثل هذه الفئة مسطح بن أثاثة ــ وأمه بنت خالة أبي بكر الصديق وحيث أن مسطحاً كان رقيق الحال فقد كان أبو بكر يحسن إليه

في نفقة مستمرة فلما علم أبو بكر بدور مسطح في نشر الشائعة قطع عنه النفقة .

وفي هذا الوقت الإيماني الدقيق نذكر ابن كبير المنافقين انه عبد الله ذلك الصحابي المؤمن الجليل – لا يرضى بنفاق والده – ويعلم أنه يستحق القتل جزاء ما يكيد للمؤمنين ويتقدم الإبن إلى رسول الله يستأذنه بقتل أبيه لأنه يخشى من ضعف بشري ينتابه إذا قتله سواه .

ويشرح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يجيبه (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا . .) وهذا الإبن المؤمن هو الذي وضع والده المنافق عند باب المدينة ليدخلها ذليلا بعد إذن الرسول الذي دخلها عزيزاً .

هذا المجتمع المؤمن وفيه هذه الشخصيات الفذة فيه أيضاً فئة حاقدة منافقة لبعضها قوة عصبية قبلية تخفي كيدها فلا يتم فضحها كل الفضيحة .

ولقد تعمد المنافقون عن كيد عدم إتاحة الفرصة لفـــرح المؤمنين بهذا النصر الذي حققوه .

فكانت الحادثة الأولى في شجار وقع بين أنصاري وأحد المهاجرين وكادت الفتنة تنشب أظفارها . وحاول كبير المنافقين أن يثيرها ولكن الرسول الكريم القائد صلى الله عليه وسلم قد واجه الموقفين معاً إذ حسم الأمر في شجار الفردين المؤمنين وتمت المصالحة وكان التوجيه النبوي بعدم العودة إلى الجاهلية .

ثم حسم الأمر مع كبير المنافقين بعد أن تناقلت الأخبار سوء طويته استغلالا للحادثة . . واكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم

بذلك ولم يوافق على قتله أملا في صلاح أمره . . كما أتم الله صلاح ابنه المجاهد الصادق .

أما في حادثة الإفك فإن الأزمة أشد تعقيداً وذات حساسية شخصية خاصة فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يتسرع بحسمها دون دليل قاطع لأنه طرف فيها ولأنها تمس القيادة ذاتها فكان لا بد أن ينتظر الدليل القاطع أو الوحي الإلهي الصادق . وهذا ما جعل المعاناة تمتد شهراً طويلا مديداً .

٧ ـ ختـام نفسي تربوى :

لقد كان هذا الموقف عصيباً لجميع أفراد المجتمع الإسلامي ولا سيما لأطرافه المتصلة به اتصالا مباشراً وهو موقف يحمل عدة دروس عملية في الحياة النفسية الإجتماعية كما يلي :

(أ) إعلان تأكيدي لبراءة السيدة الطاهرة :

إن الرسول نفسه وهو الزوج يعلم استقامة زوجته وعفتها إذ قال في عنفوان الأزمة وهو على المنبر يخاطب الناس (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي . . ؟ فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا . .) .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم وفي هذه الحالة الخاصة ينتظر الدليل القاطع أو الوحي الإلهي .

ثم إن السيدة الطاهرة نفسها تعلم أشد العلم أنها بريئة تمام البراءة إذ قالت لزوجها ولوالديها :

(إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثاً تحدث به الناس واستقر في نفوسكم وصدقتم به . فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني

بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنني ..
وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة . وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي) .

ولقد جاء الوحي الإلهي فأنزل الله تعالى :

« إِنَّ الذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم . . . » .

وتمت البراءة كاملة في عشر آيات كريمات . .

وتصف السيدة فرحتها الكبرى بعد نزول الوحي على الرسول الذي ظهرت عليه أمارات الرضا والسرور فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لعائشة : يا عائشة إحمدي الله تعالى فإنه قد برأك . فقالت لي أمي : قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى هو الذي أنزل براءتي .

(ب) وكان الختام أيضاً فضحاً للمنافقين وأساليبهم في الكيد واللؤم وأذية المؤمنين والمؤمنات والذين خاضوا في الإفك لكل واحد منهم نصيبه من الإثم أما زعيم ذلك الإثم الكاذب وهو كبير المنافقين فله العذاب العظيم ولقد كانت سورة (المنافقون) درساً عظيماً للمؤمنين ليعرفوا بها مكانة النفاق وأساليبه وطرق مواجهته كما أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية في القرآن من الإشارة للنفاق والمنافقين .

(جـ) وهذا الموقف النفسي الاجتماعي في هذه الحادثة :

كان درساً عملياً عميقاً لكل أفراد المجتمع الإسلامي رجالا ونساء إنه درس نفسي تربوي قدمه القرآن لقد كان ينبغي على أفراد المجتمع المسلم ألا يسمحوا لأنفسهم بسماع تلك الفرية

الخبيثة ــ وألا يحاولوا ترديدها . وألا يحاولوا تضخيمها فالمؤمن مسؤول عن كل ما يسمع وما يقول .

لقد كان على المؤمنين والمؤمنات أن تكون ثقتهم بأنفسهم خيراً ولا سيما في زوجة رسولهم الطيبة وفي أخيهم المؤمن المجاهد وفي هذا كان منزل أبي أيوب الأنصاري وزوجته مثلا للأسرة المؤمنة التي ظلت في زوبعة العاطفة تعلن ثقتها الخيرة بنفسية المؤمنين والمؤمنات .

(د) تشريعات سلوكية وقائية :

ذلك أن الإسلام يضفي صيانة على الأعراض وحماية على على النفوس ويعتبر كل نفس بريئة طاهرة ما لم يثبت العكس . والثبوت لا يكون بمحض السماع لكل قيل وقال . فالقرآن يحمي نظافة المجتمع ويضع أساليب الوقاية النفسية من التمزق وفقد الثقة والاحترام :

« وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمتُه في الدُّنْيا وَالآخِرَة لَمَسَّكُم فِيما أَفَضْتُم فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ★ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم ما لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ★ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم ما يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّم بِهَذَا سُبْحانَكَ هَذَا بُهْتانٌ عَظِيمٌ ★ يَعِظُكُم اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبداً إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين »(١) .

١ ــ سورة النور الآيات١٤ــ١٧ .

(هـ) تشريعات علاجية حاسمة :

في رفض شائعة لأن الأصل براءة النفس وطهارة الفرد وسلامة المجتمع فقلب المؤمن دليله ولا يقبل قول الزور .

وفي وجوب أن يطالب المؤمن كل مروج للشائعة بالدليل اليقيني والبرهان العملي . و في مثل هذه الشائعات التي تتعلق بأعراض الناس وعفة النساء فلا بد من أربعة شهداء . . فاذا لم يأت مروج الشائعة بهؤلاء الشهداء الأربعة فهو كاذب حقود وعليه الجزاء وهو حد القذف الذي ورد في الآيات قبل حديث الإفك الذي جاء مثالا يكشف شناعة الجرم(١) .

ولقد كانت سورة النور كاسمها الدقيق نوراً يربط نفسية المؤمن بالله لتظل نفسه مشرقه بالإيمان والأمان والاستقامة — ولتكون نفسية المجتمع المسلم في السلوك كله أنواراً مشرقة ليس فيها تدليس ولا تآمر ولا كيد مما يضمن للمؤمن وقاية وللمجتمع حماية . لذا كانت السورة في جوهرها توجيهاً قرآنياً صريحاً مباشراً في أهمية الآداب السلوكية والأخلاقية النفسية الاجتماعية إلى جانب أهمية العقوبات الزاجرة . . ففي الآداب والأخلاق وقاية لضمان صفاء النفس والمجتمع وفي العقوبات علاج لاستمرار صفاء النفس والمجتمع أيضاً .

(و) هذا الموقف النفسي الاجتماعي كان أحد الدروس الكبرى للإنسان المسلم في أحضان المجتمع الناشيء فعلى الرغم من كل المكائد والشرور من المنافقين وعلى الرغم من كل ما تورط فيه بعض المؤمنين من ترديد للشائعة الكاذبة الخاطئة وعلى الرغم من

---

١ — قطب : سيد (في ظلال القرآن) مجلد (٤) ص ٢٤٩٤ .

كل ما تعانيه النفوس المؤمنة البريئة ومن حولها من أقرب الناس إليها فإن التوجيه القرآني الحكيم في سموه ينال كل مخطيء بقدر نصيبه من الإثم من بعض الفقراء المؤمنين الذين قد ارتكبوا خطأ — فإن الصفح يظل سيد المكارم .

ولنتصور أبا بكر الشيخ الوقور الصديق يطعن في شرف ابنته زوجة رسوله الصادق الأمين — ويزداد هذا الألم شدة حين يجد أبو بكر أن أحد أقربائه الذين ينفق عليهم يشترك في إشاعة هذا الإفك فيمنع عنه النفقة وهذا أقل ما يتصور العقل أن يفعله تعبيراً عن الحسرة التي كان يجدها أبو بكر .

بيد أن التوجيه القرآني يريد أن يمحو الآثار السلبية لهذه الحادثة تماماً كما يريد من النفس المؤمنة أن تعلو إلى آفاق التزكية السامية وهنا تتنزل الآية الكريمة في حق أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

« وَلا يأتَلِ أُولُو الفَضْلِ منكُم والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبى والمساكينَ والمُهاجرينَ في سَبيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لكُم واللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ »(١) .

فيما يكاد أبو بكر يسمع دعوة الله إلى العفو والصفح حتى يندفع تلقائياً بعيداً عن آلامه وجراحه فيلبي دعوة الله (بلى أحب أن يغفر الله لى) ويعيد إلى مسطح النفقة المعتادة ويحلف : والله لا أنزعها منه أبداً . .

---

١ — سورة النور الآية ٢٢ .

قــراءات مهمة

الآيات القرآنية الكريمة الواردة في هذا الموقف النفسي الاجتماعي هي فصل الخطاب وأصدق الحديث . في وصف الحالة النفسية للمؤمنين والمؤمنات مع التوجيه القرآني الخالد :

« إنَّ الذينَ جاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ منْكُم لا تحْسَبُوهُ شرًّا لكُم بلْ هُوَ خيرٌ لكُم لكُلِّ امْرِيءٍ منْهُم ما اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ والذِي تَوَلى كِبْرَهُ منْهُم لهُ عَذَابٌ عظيمٌ ★ لَوْلا إذْ سَمِعْتُموهُ ظَنَّ المُؤْمِنونَ والمُؤْمِناتُ بأنفُسِهِم خيْراً وقالُوا هـٰذَا إفْكٌ مُبِين ★ لَوْلا جاءُوا علَيْهِ بأرْبَعَةِ شُهَداءَ فإذْ لَمْ يأتُوا بالشّهداء فأولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُم الكاذِبُونَ ★ ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم ورَحْمتُهُ في الدُّنْيا والآخرَةِ لمَسّكُمْ فيما أفَضْتُم فِيهِ عَذَابٌ عَظيمٌ ★ إذْ تَلَقَّوْنَهُ بألْسِنَتِكُم وتَقُولُونَ بأفْواهِكُم ما لَيْسَ لَكُم بهِ عِلْمٌ وتحْسَبُونَهُ هيّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظيمٌ ★ ولَوْلا إذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم ما يكُونُ لَنَا أنْ نَتَكَلّم بهـٰذَا سُبْحانكَ هذَا بُهْتَانٌ عَظيمٌ ★ يَعِظُكُم اللهُ أنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أبداً إنْ كُنْتُم مؤْمِنِينَ ★ ويُبَيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ والله عَليم حَكيم ★ إنَّ الذِينَ يُحِبُّونَ

أنْ تَشيعَ الفَاحِشةُ في الذِينَ آمَنوا لهم عَذَابٌ أليمٌ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ . وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ وَأَنّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحيمٌ ★ يا أيّها الذِينَ آمَنُوا لا تَتّبِعُوا خُطُوَاتِ الشّيْطانِ وَمَنْ يَتّبعْ خُطُوَاتِ الشّيْطانِ فإنّهُ يأمُرُ بالفَحْشَاء وَالمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُم مِنْ أحَدٍ أبداً وَلكِنّ اللهَ يُزَكّي مَنْ يَشَاءُ واللهُ سَميعٌ عَليمٌ ★ وَلا يَأتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ منكُم والسّعَةِ أنْ يُؤْتُوا أُوْلي القُرْبى والمَسَاكينَ والمُهاجِرينَ في سَبيلِ اللهِ . ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لكُم واللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ »(١) .

---

١ ـ سورة النور الآيات ١١ـ٢٢ .

الفصـــل السـابع

من معالم (شخصية المرأة) فى القرآن

- إنها المرأة نفسياً .
- مساواة إنسانية مع الرجل .
- كرامة مطلقة .
- العفة خلق أصيل في المرأة .
- عواطف الأمومة .
- حاجة المرأة لقوامة الرجل .
- شخصية امرأة العزيز (شخصية يوسف عليه السلام — شخصية عزيز مصر — قمة المراودة الجنسية — مكابرة وتبرير وتهديد — اعتراف صريح — تربية نفسية) .
- شخصية ملكة سبأ : (الملكة والمجتمع — سليمان يتصرف بحكمة — امرأة بعيدة النظر — كتاب واضح موجز — ملكة تحب الشورى — كبار قومها — تريث الملكة في اتخاذ القرار — سليمان نبي الله — اختيار عملي لشكر سليمان — امرأة ذكية — مفاجأة ثانية — إسلام لله رب العالمين) .

نفسية المرأة فى القرآن

● **انها المرأة نفسـيا :**

إن نفسية المرأة تتدرج أساساً في معالم الشخصية الإنسانية وفي المقومات الكبرى للتكوين النفسي مثل : الكرامة الإنسانية ومساواتها في الجنسين ـ والصفات الإنسانية الأولية في حق الحياة السعيدة وأهلية التعليم وما تحمله من مواهب فطرية بالإيمان بالله وحب الخير والفضيلة وغيرها(١) .

بيد أن شخصية المرأة تتميز ببعض المعالم النفسية التي يتأكد ظهورها لدى المرأة أكثر من الرجل . . كما تتميز ببعض معالمها الجسدية والوراثية فطرياً .

وهذه الفروق قد تكون أحياناً في زيادة درجة القوة في صفة مشتركة معينة مثل تكوين الاستجابات الانفعالية والسلوكية لدى المرأة بالمقارنة لما لدى الرجل(٢) .

مع العلم أن هذه الفروق بين الرجل والمرأة هي فروق وظيفية وليست فروقاً إنسانية أبداً كما سنرى .

وسيتناول البحث في هذا الفصل أهم السمات النفسية التي أشار إليها القرآن الكريم . مع تقديم لبعض النماذج لمواقف نسائية فيه ـ علماً بأن هذا البحث ليس دراسة (لحياة المرأة) لكل ما ورد في القرآن عنها .

---

١ ـ لمزيد يرجع للموؤلف فى (الرسول العربى المربى) ص ١٣١ـ١٤٨ .

٢ ـ لمزيد يرجع للمؤلف فى (الفروق الفردية) فى مجـال التربية

١ ـ مساواة انسانية مع الرجل :

يؤكد القرآن في عدة آيات كريمات هذه المساواة الإنسانية الأصيلة بين الرجل والمرأة . . فكل منهما إنسان كامل الإنسانية لأنهما من نفس واحدة كما نجد ذلك في أربع آيات متفرقات :

« هُوَ الذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إليْها » (١) .

« وَهُوَ الذي أنْشأكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌ وَمُسْتَوْدَعٌ »(٢) .

« خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ منْها زَوْجَهَا »(٣) .

« يا أيّها النّاسُ اتّقُوا رَبّكُم الذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ منْها زَوْجَهَا » (٤) .

وهذه المساواة تشمل الجوانب الرئيسية في الحياة الإنسانية في :

١ ــ حق الحياة . . والاحتفال بقدوم الأنثى والذكر .

٢ ــ حق التعلم لكل نافع ومفيد .

٣ ــ حق التملك بشخصية كاملة مستقلة .

---

١ ـ سورة الاعراف الآية ١٨٩ ٠
٢ ـ سورة الانعام الآية ٩٨ ٠
٣ ـ سورة الزمر الآية ٦ ٠
٤ ـ سورة النساء الآية ١ ٠

٤ ـ مسئولية التكليف أمام الله ثواباً وعقاباً .

٥ ـ مساواة أمام القانون والتنظيم بين الرجل والمرأة المتزوجة وغير المتزوجة .

٦ ـ تكون المرأة الطيبة مثلا أعلى للرجال والنساء الصالحين والصالحات كما أنها قد تكون مثلا سلبياً لعكس أولئك جميعاً .

فامرأة فرعون وهي المؤمنة التقية كانت مثلا للذين آمنوا . . ولم تؤثر عليها شخصية فرعون الطاغية(١) .

ولنتذكر الآية الكريمة التالية فإنها جامعة :

« إنَّ المُسْلمينَ والمُسْلماتِ والمُؤْمنينَ والمُؤْمناتِ والقَانِتِينَ والقانِتَاتِ والصادقين والصَّادِقاتِ والصّابرينَ والصَّابرَاتِ والخَاشِعينَ والخَاشِعاتِ والمُتَصَدِّقينَ والمُتَصَدِّقاتِ والصَّائمينَ والصَّائمَاتِ والحافِظينَ فُرُوجَهُم والحافِظاتِ والذَّاكِرينَ اللهَ كَثِيراً والذَّكِراتِ أَعَدَّ اللهُ لهُم مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظيماً »(٢) .

٢ ـ كرامة مطلقة :

يؤكد القرآن كرامة المرأة باعتبارها تكريماً أصيلا يتعلق بإنسانيتها الكاملة كالرجل . لأنها من نفس واحدة كرمها الله تعالى وأمر الملائكة بالسجود تكريماً . ويتميز هذا التكريم بما يلي :

---

١ ـ كما فى سورة التحريم الآيات (١٠ـ١١ـ١٢) .
٢ ـ سورة الاحزاب الآية ٣٥ .

١ – المرأة في القرآن لا تحمل وزر الخطيئة الأولى . فليس في القرآن خطيئة موروثة في حياة الإنسان .

فآدم وحواء في الجنة كان الأمر لهما معاً بعدم القرب من تلك الشجرة – ثم إن الشيطان أزلهما معاً – فأكلا منها فاستحقا الجزاء ثم أنهما ندما واستغفرا الله تعالى وتاب عليهما إنه هو التواب الرحيم .

٢ – يعتبر القرآن الصلة بين الرجل والمرأة ليست مجرد إشباع جنسي حيواني . بل هي علاقة سكينة ومودة ورحمة .

وهنا يسمو القرآن في نظرته إلى المرأة باعتبارها إنسانة كاملة التقدير النفسي والاحترام الاجتماعي فليست كما تريدها الحياة الغربية أو الشرقية أداة إغراء جنسي عابث . . أو وسيلة إعلان تجاري رابح بل إنها في النظرة القرآنية تشارك الرجل في إشباع الرغبة الجنسية على أنها وسيلة هادفة لإقامة حياة زوجية مطمئنة تسودها السكينة والمودة والرحمة التي تنتج المحبة المتكاملة لإنجاب الذرية السايمة المتنامية .

« وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون »(١) .

وفي سياق فهم هذه الآية – نجد أن عمر بن الخطاب وقد جاءه رجل يريد أن يطلق زوجته لأنه لم يعد يحبها . فقال له عمر :

---

١ – سورة الروم الآية ٢١ .

ويحك (١) أَلَمْ تُبْنَ البيوت إلا على المحبة ؟ فأين الرعاية ؟ وأين التذمم ؟ كما في قوله تعالى :

« وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً »(٢) .

٣ ـ العفة خلق أصيل في المرأة :

العفة باعتبارها الحفاظ على الشرف هي خلق أصيل في تكوين المرأة الأنثوي فهو رأسمالها فيما تعتز به خلال حياتها النفسية السلوكية . بحيث تكون العفة فخرها قبل الزواج انتظاراً لفتى الأحلام والسعادة كما تكون العفة في حياتها الزوجية رمزاً للإخلاص لزوجها وصيانة لصفاء نسب الذرية .

والمرأة تدرك قناعة أن الانحراف عن جادة العفة تدفع ثمنه غالياً جسمياً واجتماعياً ونفسياً أكثر من قرينها الرجل أن الذنب واحد شرعاً ومشترك عضوياً .

وحفاظاً من المرأة على عفتها فإنها عموماً تتوقد إلى الزواج ولا سيما المبكر لأنه يمنحها الحماية والاستقرار .

ولذا فإن القرآن قد أشار إلى أهمية تشجيع الزواج باعتباره الطريق السليم لإشباع الدوافع الجنسية الفطرية كما شجع المجتمع الإسلامي على إعانة الفقراء في تزويجهم فالله يغنيهم من فضله . إذ لا يجوز أن يكون الفقر عقبة في طريق الزواج وحتى يتم ذلك الزواج فالله يأمر بالعفة .

---

١ ـ سيد قطب (فى ظلال القرآن) ص ٦٢١ مجلد (٢) .
٢ ـ سورة النساء الآية ١٩ .

« وَأَنْكِحُوا الأيَامَى مِنْكُم والصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُم وَإمائِكُم إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهم اللهُ مِنْ فَضْلِه واللهُ واسعٌ عَليمٌ ★ ولْيَسْتَعْفِفِ الذينَ لا يجِدُونَ نكاحاً حتى يُغْنِيَهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ »(١) .

٤ ـ عواطف الامومة :

تتميز المرأة عن الرجل بكونها نبعاً دائماً متدفقاً لمجموعة من الانفعالات النفسية القوية المتأصلة والتي نسميها (بعواطف الأمومة) . وهي تجمع عدة عواطف مهمة : مثل : حب التضحية لتحقيق الأمومة واستمرار الحنان والعطف والرأفة لرعاية ثمرات الأمومة فالمرأة في سبيل تحقيق أمومتها تتعرض لأشد التغيرات التكوينية النفسية في جسدها أثناء تكوين الجنين ونموه .

« وَوَصّيْنا الإنْسَانَ بِوَالدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ في عامينِ أَن اشكُر لي وَلوالديْكَ إلىّ المَصير »(٢) .

وصدق الله العظيم :

وقوله أيضاً :

« وَوَصّيْنا الإنْسَانَ بِوَالديْه إحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثلاثُونَ شَهْراً »(٣) .

---

١ ـ سورة النور الآيتان ٣٢ـ٣٣ .
٢ ـ سورة لقمان الآية ١٤ .
٣ ـ سورة الاحقاف الآية ١٥

فالأم تحمل جنينها وهناً على وهن . وتم ولادته في ألم شديد وتتحمل ذلك راضية كل الرضا فإذا تمت الولادة وسمعت صرخة الميلاد لطفلها سعدت كل السعادة وتناست آلامها .

ثم هي تسهر لينام وليدها هانئاً وتتعب لسعادته وتغدق عليه فيضاً مما وهبتها الفطرة الإلهية من عطف وحنان ورأفة (١) .

فهذا النبع الانفعالي المتدفق في تكوين المرأة هو الذي يجعلها صاحبة الحق الأول في رضاعة وليدها وفي حضانته ورعايته الأولية والمباشرة .

فالأمومة ـ وهي أعظم السمات الأنثوية وأقوى دوافعها لدى المرأة هي التي تجعلها صانعة أبطال . ومربية رجال . فحضنها وذراعاها أول بيت يعيشه الطفل وتوجيهها أول مدرسة يتعلم به الوليد .

٥ ـ حاجة المرأة لقوامة الرجل :

إن فطرة الرجل وفطرة المرأة تدفعهما أن ينجذب كل منهما إلى الآخر لتكوين خلية زوجية شريفة يكون الأبناء نتيجة تلقائية لها لدوام الارتباط بينهما أباً وأماً لهذه الذرية .

وبذلك يتم تكوين الجماعة الإنسانية الأولية الأولى وهي الأسرة وإذا كانت الحياة المنظمة في مؤسسة تجارية أو شركة أو ملعب لا بد أن يكون أحد أفرادها أكثر مسئولية في القيادة والتنظيم بما يتمتع به من استعدداد ومؤهلات لضمان نجاح تلك المؤسسة .

---

١ ـ الهاشمى (علم النفس التكوينى ـ ص ٣١٧ـ٣١٩ .

فإن (الأسرة الزوجية) وهي أعز وأغلى وأقدس مؤسسة إنسانية لا بد لنجاح حياتها من أن يكون أحد أفرادها ذا استعداد ومؤهلات للقيام بدور القيادة الإدارية لها . فمن يكون الرجل أم المرأة ؟

ولقد حسمت الفطرة الوراثية الموقف فأهلت الرجل للقيام بتلك الوظيفة في مستوى من العلاقات الطيبة الرضية المتعاونة . وكانت عوامل قوامة الرجل في الأسرة بما يلي :

١ ـ عامل جسمي عضوي للمرأة في اتساع الحوض مكاناً أميناً لحياة الجنين إلى جانب العادة الشهرية التي تستوجب الرعاية الشخصية الخصوصية بينما الرجل يتمتع باتساع صدره وكتفيه مع عدم تعرضه لعادة شهرية كل ذلك يقدم له فرصة العمل خارج المنزل ومع الناس في معترك الحياة المعاشية مدة أكثر طولا .

٢ ـ عامل وظيفي تكويني للمرأة في استعدادها للوظائف الحيوية الإنسانية في تكوين الأسرة ـ حملا وولادة وإرضاعاً وحضانة .

٣ ـ زودت الفطرة المرأة بمعين من الرأفة والحنان والعطف وسرعة الاستجابة الانفعالية وهي عواطف الصق برعاية الطفولة النامية الضعيفة ، بينما الرجل زودته الفطرة بمزيد من القوة والخشونة والجلد والتفكير العملي العميق مما يساعده على مواجهة الرجال في معترك الحياة العاملة المكافحة .

٤ ـ عامل مادي فالمرأة بحكم تفرغها ولو إلى أجل مسمى لإنجاز وظائفها التكوينية الوراثية في العادة الشهرية والحمل والولادة والنفاس والرضاعة والحضانة فلا بد لها ممن ينفق عليها

ويقوم بتقديم الرعاية والحماية لها وللإبناء وأحق الناس بذلك هو الزوج والد الذرية .

وفي ضوء ما تقدم ندرك بوضوح أهمية قوامة الرجل كما في قوله تعالى :

« الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلى النِّساء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِم »(١) .

وينبغي أن نذكر أموراً مهمة في هذا السياق(٢) .

أولا : أن قوامة الرجل على المرأة هي في محيط الأسرة والعلاقات الزوجية – مع الاحتفاظ الكامل بشخصية المرأة ومساواتها للرجل في التشريع والقانون والتنظيم والمسئولية والثواب .

ثانياً : أن هذه القوامة ليست سلطة تحكمية تعسفية بل هي قوامة مسئولية تكليفية لها واجبات والتزامات مادية واجتماعية .

الثالث : قد نجد من الرجال ضعفاء ليسوا أهلا لهذه القوامة كما إننا قد نجد بعض النساء ممن لديهن بعض المؤهلات لهذه القوامة ولو جزئياً في بعض جوانبها أقول – على الرغم من وجود بعض هذه الحالات الفردية فإنها استثناء خاص .

والاستثناء ليس نقضاً للقاعدة بل هو تأكيد راسخ لها لأن العبرة – بالمجموع الكلي والعام للرجال . . في مقابلة المجموع الكلي العام للنساء .

---

١ – سورة النساء الآية ٣٤ .
٢ – سيد قطب (فى ظلال القرآن) بمناسبة شرح الآية السابقة .

وموجز القول : أن الرجل والمرأة هما من أصل واحد هو النفس الإنسانية ولكل منهما كامل الكرامة والتقدير والعلاقة بينهما ليست علاقة عراك تنافسي ، إنما هي علاقات تقوم على مباديء التكامل والتعاون والتراضي لأن الحياة الإنسانية السوية – إنما تقوم على أساس تقسيم الوظائف الحيوية في حياة الأسرة والمجتمع حسب الاستعداد والمؤهلات وهذه هي الفرص المتكافئة العادلة في الحياة السعيدة(١) .

شخصية امرأة العـزيز

يقدم القرآن موقفاً نفسياً عميقاً شاملا يشمل عدة جوانب مختلفة في ثلاث شخصيات متفاعلة .

شخصية امرأة العزيز – ولغرض البحث في هذا الفصل نعتبرها الشخصية المحورية ومن حولها شخصية زوجها عزيز مصر – وشخصية يوسف عليه السلام . وذلك بدراسة نفسية تحليلية موجزة كما يلي :

أولا : شخصية امرأة العزيز :

أنها سيدة عزيز مصر رئيسها التنفيذي تعيش حياة الترف والبذخ من حولها الخدم والحشم معيشة أهل القصور الغنية وسيدة آمرة مطاعة ليس عليها رقيب وفي بيئة غير مؤمنة بالله تعالى وليس لها تلك القيم الخلقية الذاتية الملزمة سلوكياً .

---

١ – العقاد : عباس محمود العقـــاد (موسوعته) المجلد (٤) المرأة فى القرآن – ص ٣٩٧–٤٠٥ .

يدخل يوسف وهو غلام ـ يتراوح عمره (١٤ ـ ١٥) سنة أما عمرها فحوالي الثلاثين ـ وعمر زوجها في الأربعين تقريباً (١) واستمرت حياة يوسف معها عشر سنوات ـ ولقد طلب إليها زوجها أن تكرم مثوى هذا الغلام ـ عساه يكون نافعاً لهما أو أن يتخذاه ولداً . إذ لم يكن لهما ولد ويظهر أنهما فقدا الأمل في الإنجاب .

وهذا يدل على أن يوسف قد نضج شبابه واكتمل بين يدي امرأة العزيز وسمعها وبصرها . .

ثانيا ـ شخصية يوسف (عليه السلام) (٢) :

طفل نشأ في أسرة طيبة رعاه أبوه بأحسن تربية على ملة جده إبراهيم عليه السلام ولقد ظهرت عليه بوادر العناية الإلهية بتلك الرؤيا الصادقة الشفافة التي رآها وهو صغير ثم اجتاز محنة إلقائه في الجب حين أخرج منه ليتم بيعه رقيقاً وليستقر عند (عزيز مصر) الذي ليس له ولد والذي تفرس فيه النجابة ـ ولقد أوصى العزيز امرأته بهذا الغلام فقال :

«أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا»٣

وهذه نعمة كبرى من الله ليوسف حين استقر به المقام في أحسن قصر بمصر بعد إلقائه في الجب ثم كانت البشرى الإلهية

---

١ ـ قطب : سيد (في ظلال القرآن) ص ١٩٧٩ـ١٩٨٠ .

٢ ـ باجودة : د. حسن باجودة (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام) ص ٣٥١ـ٣٧٧ .

٣ ـ سورة يوسف الآية ٢١ .

تمهيداً لتعليم الله له تأويل الأحاديث ثم من بعد ذلك حينما بلغ أشد العمر آتاه الله حكماً في سلطة أرضية وعلماً هي النبوة — طريق الهداية .

« وكَذَلكَ مَكّنّا لِيُوسُفَ في الأرْضِ ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأوِيلِ الأحَادِيثِ واللهُ غَالِبٌ عَلى أمْرِهِ ولكنّ أكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ★ولَمّا بَلَغَ أشُدّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِين » (١)

ولقد وردت صفة الإحسان التي تشمل يوسف عليه السلام في هذه السورة عدة مرات :

« ولَمّا بَلَغَ أشُدّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنينَ » (٢)

« نبّئْنَا بِتَأوِيلِهِ إنّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنين » (٣)

« نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنين » (٤)

« إنّ لَهُ أباً شَيْخاً كَبِيرًا فَخُذْ أحَدَنَا مَكَانَهُ إنّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنينَ (٥) »

---

١ — سورة يوسف الآية ٢١ـ٢٢ .
٢ — سورة يوسف الآية ٢٢ .
٣ — سورة يوسف الآية ٣٦ .
٤ — سورة يوسف الآية ٥٦ .
٥ — سورة يوسف الآية ٧٨ .

« إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْـرَ الْمُحْسِنِينَ » (١)

فالإحسان يمثل قمة التكامل النفسي في العقيدة المسلمة الصادقة والخلق الرضي السليم – والسلوك الخير الطيب .

وعندما دخل يوسف بيت عزيز مصر كان لا يزال غلاماً في حوالي الرابعة عشرة من عمره واستمر في حياته في القصر حتى كان في الخامسة والعشرين تقريباً . عشر سنوات عاشها في حياة الاختبار النفسي القاسي حتى فضل حياة السجن وما يحويه عن حياة القصر ومن فيه .

ثالثا ـ شخصية عزيز مصر :

انه رجل مسن جاوز منتصف العمر حين جاء يوسف عليه السلام القصر وليس له ولد وكانت للعزيز فراسة في ترقب النفع من هذا الغلام أو أن يكون له ولزوجته ولداً – والعزيز رجل مسئول باعتباره أشبه برئيس الوزراء بمصر فهو مشغول بأمور الحكم ولقد طلب من زوجته أن تكرم مثوى يوسف وترك الأمر لها في التنفيذ والرعاية (٢) ويظهر أن العزيز كان شديد المحبة لامرأته كما أن حياة القصور المترفة جعلت عزيز مصر لا يواجه زوجته بأخطائها مواجهة صريحة ومباشرة وقاطعة ويتجلى هذا الاتجاه في حادثة المراودة الكبري وظهر اتهام الزوجة وبراءة يوسف بالشهادة وانتشار الخبر من القصر إلى مجتمع نسوة المدينة – فلقد كان موقف عزيز مصر من زوجته كما يلي :

---

١ ـ سورة يوسف الآية ٩٠ .

٢ ـ د.باجودة / حسن باجودة الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام .

(أ) توجيه اللوم لجنس النساء جميعاً . وليس لزوجته على وجه التحديد بعد أن أثبتت الشهادة براءة يوسف واتهام الزوجة .

« فلمّا رَأى قَميصَهُ قُدّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إنّهُ مِنْ كَيْدِكُنّ إنّ كَيْدَكُنّ عَظِيم » . (١)

« يُوسُفُ أعْرِض عَنْ هَذَا . . » . (٢)

« واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إنّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ »(٣)

(ب) الإلتفات ليوسف على وجه التحديد للإعراض عن ذلك الحديث على الرغم من أنه هو البريء المظلوم . .

(ج) طلب من الزوجة أن تستغفر لأنها من الخاطئين (٣) . .

(د) ثم موافقته لزوجته بسجن يوسف حين طلبت ذلك على الرغم من علمه ببراءة يوسف .

رابعا ـ قمة المراودة (٤) الجنسية :

انها سيدة آمرة مطاعة في قصر غني قاربت الأربعين من عمرها دون ذرية وتسير نحو سن اليأس ـ ومعها في القصر شاب في كامل القوة والشباب والوسامة ثم هو عبدها تملكه وترعاه ويعيش معها تحت سقف واحد . وتعيش حياة الترف دون رقيب لا سيما وأنها في بيئة افتقدت العقيدة المؤمنة بالله والخلق السوي

---

١ ـ سورة يوسف الاية ٢٨ ·

٢ ـ سورة يوسف الاية ٢٩ ·

٣ ـ سورة يوسف الاية ٢٩ ·

٤ ـ المراودة ـ من (الرود) الطلب بالحاح · والارتياد : الذهاب والمجيء · والمراودة : الارادة والمشيئة (الفيروز ابادى) القاموس المحيط ·

فاندفعت تحاول أن تشبع ميولها العارمة ـ فكان هذا الشاب المتفتح أمامها ، وهكذا ابتدأت محاولات المراودة متدرجة ومتكررة من نظرات إلى إشارات إلى تلميحات وتربصات .

أما يوسف (عليه السلام) فهو شخصية مؤمنة بالله الذي اختارها لتكون أهلا للنبوة وكان مثال الطهر والعفاف ـ بيد أن المرأة لم تيأس . فهي تحاول إغراء يوسف وتحاول . حتى إذ أعياها الأمر وصلت إلى مرحلة المصارحة بكل ما يغلي فيها من ميول الجنس نحوه وكانت الخطوات التي نقدمها حسب التسلسل القرآني الحكيم في هذا الموقف النفسي العصيب كما يلي :

١ ـ طلبت المرأة منه بإلحاح وإصرار فعل الفاحشة :

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عن نفسه ».

٢ ـ اقتران طلبها مع اعداد عملي للأجواء .

« وَغَلَّقَتِ الأَبْوَاب »

٣ ـ غاية الصراحة في جرأتها المتهالكة .

« وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ »

٤ ـ يوسف يستعذ بالله ليحميه منها .

« قَالَ : مَعَاذَ الله »

٥ ـ يتذكر يوسف (ربه) وسواء كانت كلمة (رب) هو الله الذي أكرمه وتفضل عليه دائماً أو كان (رب) سيده عزيز مصر الذي طلب منها أن تكرم مثواه في قصره .

« إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايْ » (١)

---

١ ـ سورة يوسف الآية ٢٣ .

٦ – درس عملي بليغ يؤكده يوسف عليه السلام لامرأة العزيز في طلبها للفحشاء . انه ظلم منها أن تطلب الفحشاء وظلم لزوجها أن يخونه وظلم من يوسف أن يستجيب لها .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » (١)

٧ – وتبلغ المرأة ذروة الإلحاح الهائج .

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ »

٨ – ويحفظ الله هذا الشاب ليكون المثل في الطهر والعفاف .

« وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ »

٩ – ويصرف الله عن يوسف كل سوء وفحش لأنه استخلصه ليكون نبياً هادياً . .

« كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (٢)

١٠– يفر يوسف منها نحو الباب ليخرج سالماً من الموقف وتلحق به المرأة تمنعه من الخروج .

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ »

١١– انها تمسك بثوب يوسف لترده إليها لأنها لا تقبل الهزيمة إنها تحاول إجباره .

« وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ »

---

١ – سورة يوسف الآية ٢٣ ·

٢ – سورة يوسف الآية ٢٤ ·

١٢ـ ينفتح الباب وتكون المفاجأة انه الزوج وتتصنع المرأة البراءة على الرغم من هياجها العام سعياً وراء يوسف .

« وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ »

١٣ـ انها ذكية تجد نفسها في موقف الريب والاتهام فتلقي ما في نفسها على يوسف إسقاطاً نفسياً مكشوفاً على طريقة رمتني بدائها وانسلت ثم تحكم عليه بالسجن عقوبة أو أي جزاء أليم . . وكل هذا يتم من المرأة دون سؤال من أحد : انه الجاني يكاد يقول خذوني .

« قالت : ما جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيم » . (١)

١٤ـ يظهر يوسف الحقيقة للزوج عن زوجته في موقفها المريب .

« قال : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » . (٢)

١٥ـ ويقدم شاهد دليلا حسياً يستخدمه ليعرف به الصادق من الكاذب . فإن كان قميص يوسف تشقق وتمزق من دبر فقد كان فاراً منها مولياً عنها . وإن كان قميصه تمزق من قبل فإنه كان مقبلا عليها راغباً فيها .

ويرى الشاهد الحكيم وهو من أهل امرأة العزيز الدليل المادي يؤيد صدق يوسف وبراءته . وتثبيت كذب امرأة العزيز ومراودتها.

---

١ ــ سورة يوسف الآية ٢٥ .
٢ ــ سورة يوسف الآية (٢٦)

« وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ★وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ★فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » . (١)

خامسا ـ مكابرة وتبرير وتهديد :

لقد فشلت امرأة العزيز في كشف نفسها أمام يوسف وزوجها وأمام الشاهد الحكيم من أهلها ولكنها لا تقبل الهزيمة ولقد زاد من مكابرتها ما انتشر من أخبار تلك المراودة التي تفضح سلوكها حتى غدت حديث نسوة المدينة خارج القصر :

« وقالَ نِسْوَةٌ في المَدِينَةِ امرأةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إنَّا لَنَرَاهَا في ضَلالٍ مُبِين » .(٢)

وتجد امرأة العزيز نفسها تحت وطأة فشل المراودة وافتضاح حبها ليوسف وقد تمكن من قلبها حتى أصبحت حديث النساء في مجالسهن وقد وصفن سلوكها بالضلال المبين . فتلجأ إلى مزيد من المكابرة والتبرير بإيقاع النسوة فيما وقعت عندما يشاهدن يوسف وهن في مجلس خاص مطمئن . . للطعام والراحة فجعلن يقطعن أيديهن بما كن يحملن من سكاكين وهن لا يشعرن لذهولهن بروعة الشباب المكتمل الرائع .

---

١ ـ سورة يوسف الآية ٢٦ـ٢٨ .

٢ ـ سورة يوسف الآية ٣٠ .

وتنجح خطة امرأة العزيز في الإيقاع بنسوة المدينة وتعلن موقفها من يوسف بكل صراحة واستعلاء بأنها هي تراود يوسف مؤكدة ذلك بأداتين هما (لام التوكيد) و (قد) أداة تحقيق وتأكيد :

« وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ». (1)

انه يوسف يأبى أن ينحط أو أن ينحرف انه مستعصم وهو أشد درجات الامتناع وعدم المطاوعة . .

وبعد ذلك وقد أفلست كل محاولاتها لا تجد إلا تهديد يوسف بالسجن ليكون من الصاغرين إذا لم يذعن لمراودتها .

أما يوسف فيزداد تمسكاً بالطهر والعفاف . ويطلب السجن راضياً سعيداً لأن في السجن خلاصاً من حياة القصر ومن فيه .

« قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إليهِ » .(2)

سادسا ـ اعتراف صريح :

يعيش يوسف في السجن راضياً لأنه كان أحب إليه من القصر وما يجري فيه وتزداد شخصية يوسف ظهوراً فهو صاحب رسالة إلهية مؤمنة بالله تعالى يبشر بها حيثما كان . ويقيم علاقات صداقة في السجن . وتمر الأيام والشهور فيرى الملك رؤيا أهمته . ويطلب تعبيرها ممن حوله فلا يعرفون . ويتذكر أحد جلساء الملك وهو ساقيه يتذكر يوسف وقد كان صاحبه في السجن يوم كان فيه ، وكيف

---

1 ـ سورة يوسف (32) .
2 ـ سورة يوسف (33)

أوّل له رؤياه وبشره بالخروج من السجن وعودته لمجلس الملك . فيرسل الملك رسولا إلى يوسف في السجن يسأله تعبير الرؤيا . . فيقدم يوسف التعبير الكامل الصحيح للرؤيا . . مع تقديم خطة منظمة زمنية للتنفيذ . فيسر الملك أيما سرور ويطلب إحضاره إليه في القصر .

« وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ » (١) .

بيد أن يوسف يطلب من رسول الملك أن يستوثق الملك بنفسه من براءة يوسف وهو لا يزال في السجن : انه يريد منهم أن يعرفوا براءة يوسف لأنه يعلم في قرارة نفسه أنه بريء ويسأل الملك أولئك النسوة اللاتي قطعن أيديهن فيعترفن ببراءة يوسف تمام البراءة . . وهذه شهادة جماعية لها قيمة في إعلان براءة يوسف – كما أثبت ذلك الشاهد الحكيم براءته من قبل . وختاماً تعلن المرأة الأولى صاحبة القضية تعلن الحقيقة أنها هي التي راودته وأن يوسف صادق بكل تأكيد . .

« قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقّ أَنَا رَاوَدْتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » (٢)

● تربيــة نفســية :

ان القرآن الكريم كتاب هداية وتربية للإنسان ويجعل من مواطن القوة والضعف في التكوين النفسي سبيلا لتوجيه النفوس وإرشادها لحياة فضلى في مستويات الحق والسمو . وفي استعراضنا

---

١ – سورة يوسف ٥٠ .
٢ – سورة يوسف ٥١ .

للوصف القرآني لمواقف الانحدار المتدني لدى امرأة العزيز ، فإنه يؤكد الجوانب النفسية التربوية التالية :

١ ـ يصف القرآن مواطن الضعف النفسي في مواقف الانحدار والهبوط وصفاً غير مشجع فيسمي الأمور بأسمائها الدقيقة غير المنحطة وغير البذيئة فالقرآن يذكر :

(المراودة) وهيت لك (وغلقت الأبواب) فهو بهذا يحفظ للنفس المنحرفة بعض ما يجب أن يكون لديها من الحياء والخجل . بخلاف الروايات التي يكتبها المفسدون . والتي تتعمد الإفساد فإنها تسمي الخيانة الزوجية صداقة وتسمي العلاقات الجنسية المشبوهة روحاً اجتماعية نشيطة .

وبخلاف الأدب المكشوف حيث يستخدم الألفاظ البذيئة والفاحشة المنحطة التي تنفر منها الأذواق اللبقة الشريفة .

٢ ـ يمر القرآن بمواطن الضعف في النفس الإنسانية مروراً عابراً سريعاً ويلمسها لمساً خفيفاً دون إمعان في توقف . فحياة المراودة التي عاشتها امرأة العزيز ومراحلها ربما استمرت في مظاهرها سنوات حتى إذا بلغت المرارة قمتها وطفح كيلها رواها بعشر كلمات لا تكمل سطراً واحد . أما روايات الإفساد فإنها تصف شخصية المرأة المراودة وعملية المراودة ذاتها بصفحات وصفحات .

أما القرآن فإنه يشير إليها على عجل لأنه أمر تشمئز منه النفوس الأبية الشريفة ويكفيها من ذلك الإشارة العابرة .

٣ ـ يلاحظ أن في سياق الموقف وفي جوانب الانحراف

لا تخلو إحدى شخصياته المتفاعلة ممن يذكر بالخير والعدالة فيوسف على الرغم من مركزه الاجتماعي الضعيف آنذاك يذكر بالله تعالى وعزيز مصر على الرغم مما فيه من ضعف أمام زوجته فإنه لا يشجع الإنحراف .

رغم مركزه الإجتماعي الضعيف آنذاك يذكر بالله تعالى وعزيز مصر رغم ما فيه من ضعف أمام زوجته فإنه لا يشجع الإنحراف .

٤ ـ يؤكد القرآن الكريم في مثل هذه المواقف المنحرفة أن يظهر الحق أخيراً ـ وأن تنتصر الفضيلة ختاماً . فالباطل لا يجدي . والإنحراف لا يثمر .

فامرأة العزيز على الرغم من كل مكايدها وانحرافها فإنها أخيراً تعلن اعترافها بصدق يوسف وبراءته وينال يوسف مركزاً إجتماعياً كبيراً .

وكذلك الحال مع « بلقيس » ملكة سبأ حين كان ختام الموقف باعترافها بظلم نفسها ثم إعلانها الإسلام لله رب العالمين والقرآن بهذا الختام الإنساني التربوي النبيل يحفظ للمرأة كرامتها الإنسانية المحترمة ويصون لها أنوثتها الغالية العزيزة .

شخصية ملكة سبأ

كانت ملكة سبأ معاصرة لسليمان عليه السلام في مملكته التي تشمل اليوم فلسطين وبعض أجزاء من الشام . وكانت لسليمان معجزات إحداها ما سخره الله من جن وإنس وطير في جنوده .

وذات مرة يتفقد سليمان طيره (الهدهد) إذ لم يكن حاضراً ، فغيابه كان دون إذن ولكن الهدهد ما لبث أن جاء وقدم لسليمان عذراً .. فقد جاءه بنبأ يقين من مكان بعيد من سبأ جنوب الجزيرة العربية في اليمن . وكان سياق الموقف لبيان شخصية ملكة سبأ في التسلسل القرآني كما يلي :

أولا ــ الملكة والمجتمع :

انها امرأة ملكة في قومها . ولديها أسباب القوة في الغنى والصناعة .

« إنِّي وَجَدْتُ امرأةً تَمْلِكُهُم وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » (١)

ثم يذكر الهدهد في أخباره أن الملكة وقومها يسجدون للشمس من دون الله ويتم شرح العقيدة السليمة المؤمنة بالله حيث يكون السجود وهو رمز الخضوع والعبادة إنما هو لله تعالى القادر على كل شيء مخبوء أو ظاهر مشاهد في الكون وفي نفوس الناس أيضاً . فالله هو الإله الواحد المعبود رب العرش العظيم .

« وَجَدتُّها وقَوْمها يَسْجُدُونَ لِلشَّمسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ أَعْمالَهُم فَصَدَّهُم عَنِ السَّبيلِ فَهُم لا يَهْتَدُون ★ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السَّمواتِ والأرضِ ويَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُون ★ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم » (٢)

ثانيا ــ سليمان يتصرف بحكمة :

ينصت سليمان لهذه الأخبار وما تحمله من حوادث مثيرة ومهمة على الرغم من أن مملكة سبأ بعيدة نسبياً عن مملكة سليمان .

---

١ ــ سورة النمل الآية (٢٣) .

٢ ــ سورة النمل الآيات٢٤ــ٢٦ .

فإن النبي القائد الحكيم (سليمان) يعنيه أن يعلم ماذا يدور حول بلاده من قريب أو بعيد . . ولكن الحكيم لا يتعجل بإصدار القرار عند مجرد السماع انه يعمل للتثبت قبولا أو رفضاً .

ويسلك سليمان سبيلا عملياً منصفاً لمعرفة مدى صحة هذه الأنباء وذلك بإرسال رسالة مع الطائر نفسه إلى تلك الملكة وأمره ألا يستعجل الرجوع بل أن يظل مراقباً لردود الفعل في تصرفات الملكة وقومها بعد معرفتهم مضمون الرسالة :

« قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ★ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ » . (١)

ثالثا ـ امرأة بعيدة النظر :

استلمت الملكة الرسالة ــ ولعلها اطلعت على مضمونها ثم أعلنت بكل صدق وصراحة عن وصول الكتاب إليها فور استلامه وأعلنت مضمونه ، فالملكة آمينة لم تخف الكتاب عن قومها ــ على الرغم من أن مضمونه مخالف تماماً لحياتها العقائدية وحياة مجتمعها وأن الرسالة تطلب منها تغيير عقيدتها لتصبح مسلمة مع قومها .

فهي امرأة أمينة في قيادتها ذكية في تصرفها الفوري بعد وصول الكتاب إليها ثم انها بعيدة النظر حين وصفت الكتاب : بأنه كريم .

---

١ ـ سورة النمل الآية ٢٧ـ٢٨ .

وكرم الكتاب يشمل مرسله سليمان كما يشمل مضمونه بالدعوة إلى عدم الاستعلاء غروراً وإلى الإيمان بالله تعالى إسلاماً . .

« قالت : يا أيُّها المَلأ إنِّي أُلْقِيَ إليَّ كِتابٌ كَرِيمٌ » .(١)

رابعا ـ كتاب واضح وموجز :

ان مضمون الكتاب واضح الأهداف . وموجز الأسلوب . . كما يلي :

١ ــ مصدر الكتاب إذ مرسله سليمان . . ويكفي هذا الإسم ليكون معروفاً .

٢ ــ ابتداء بالبسملة بذكر الله تعالى فهي شعار المسلمين في كل عمل لأنها تعلن عن صلة الإنسان بالله تعالى .

٣ ــ جوهر الكتاب : دعوة صريحة بعدم التعاظم المستكبر المتعالي والدعوة إلى الإسلام في عقيدته المؤمنة بالله واحداً معبوداً .

« إنّهُ مِنْ سُلَيْمان وإنّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيم ★ ألاَّ تَعْلُو عَليّ وَأتُوني مُسْلِمِينَ » . (٢)

خامسا : ملكة تحب الشــورى :

انها ملكة عاقلة واعية تواجه الآن مشكلة كبرى تمس صميم التكوين العقائدي لها ولقومها . لذا فإنها تلجأ للشورى لتشارك قومها في تحمل المسئولية المصيرية عند اتخاذ القرار المطلوب . فإنها لا تريد أن تواجه الأمر وحدها .

---

١ ــ سورة النمل الآية ٢٩ .

٢ ــ سورة النمل الآية ٣٠ــ٣١ .

« قالت : يا أيها المَلأُ أفْتوني في أمْرِي ما كُنْتُ قَاطِعَةَ أمْرًا حتّى تَشْهَدُون » . (١)

سادسا ـ كبار القوم من حول الملكة :

يؤكدون قوتهم وطاعتهم . وهم ينتظرون الأمر . ولعل هذا الموقف مظهر من مظاهر التهرب من المسئولية الحرجة لدى بعض المقربين من صاحب السلطة حين تنقصهم الصراحة والصدق في تقديم النصيحة . وإنما يجعلون من أنفسهم أدوات تنفيذية طيعة .

« قالوا : نَحْنُ أُولُو قُوّةٍ وأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ والأمْرُ إلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » . (٢)

سابعا ـ تريث الملكة فى اتخاذ القرار :

انها سيدة عاقلة لا تتعجل فهي أولا وصفت الكتاب بأنه كريم وهذا الوصف فيه بعض علامات الرضا لمضمون الكتاب ، لأنها ولا شك قد سمعت عن سليمان ونبوته وحكمه وعدله . ثم انها تستفيد من دروس التاريخ الماضية حين تذكر أن أرباب السلطة إذا فتحوا البلاد عنوة فإنهم يجعلون عمارها خراباً . . وزعماءها أذلة . .

بعد كل هذا تلجأ إلى وسائل الإغراء المادي بإرسال هدية مناسبة إلى سليمان : لتكشف شخصيته وهل فيها مواطن ضعف في انصرافه عن دعوته النبوية أو مساومة عليها . ان ملكة سبأ غنية تستطيع متابعة الهدايا لدفع الطواريء .

---

١ ـ سورة النمل الآية ٣٢ .

٢ ـ سورة النمل الآية ٣٣ .

« قالتْ إنّ المُلوكَ إذَا دَخلُوا قَرْيةً أفْسَدُوها وَجعَلُوا أعِزّةَ أهْلِها أذِلّةً وكذلكَ يفْعَلُون * وإني مُرْسِلةٌ إليْهِم بِهَدِيّةٍ فنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجعُ المُرْسَلُون »(1) .

ثامنا ـ سليمان نبي الله :

سليمان لا يغره المال آتاه الله خيراً . إنه يدعو إلى الإسلام فيرد الهدية لمن يفرح بها . مع تهديد بالقدوم إلى الملكة وقومها فاتحاً .

فلما جاء سليمان . قال :

« أتُمِدّونَنِ بِمَالٍ فمَا آتاني اللهُ خَيرٌ مِمّا آتاكُم بلْ أنتُم بهَدِيّتِكُم تفْرَحُون * ارْجعْ إليْهِم فلَنأتِينّهم بجِنُودٍ لا قِبَلَ لهُم بها ولَنُخْرِجنّهُم منْها أذِلّةً وهم صَاغِرُون »(2) .

تاسعا ـ اختبار عملي لشكر سليمان :

يعلم سليمان من رسله أن الملكة وقومها لا يرغبون في الحرب وأنها قادمة في طريقها إليه فيطلب إحضار عرشها العظيم إليه ليفاجأها به بعد وصولها وليجعل من ذلك مؤثراً نفسياً لسرعة استجابتها للإيمان بالله الذي سخر لسليمان ذلك .

---

1 ـ سورة النمل الآيتان ٣٤ـ٣٥ .
2 ـ سورة النمل الآيتان ٣٦ـ٣٧ .

ولقد تم إحضار العرش من اليمن إلى فلسطين بأقل من جزء من الثانية مسافة آلاف من الأميال . وتم هذا النقل السريع للعرش على يد رجل عنده علم من الكتاب وهذه أيضاً إحدى معجزات سليمان .

والمعجزة الإلهية إنما تتم بقدرة الله مباشرة دون وجود أسباب عملية آلية إنسانية ويعلن سليمان أن هذا النقل السريع من فضل الله عليه وكان ذلك اختباراً عمليا لبيان شكر سليمان لله رب العالمين :

« قالَ الذي عِنْدهُ عِلمٌ مِنَ الكِتابِ أنا آتيكَ بهِ قبْلَ أنْ يرْتَدَّ إليكَ طَرْفُكَ فلمّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قالَ : هذا مِنْ فَضْلِ رَبي لِيَبْلُوَني ءَأشْكُرُ أمْ أكْفُر ومَنْ شَكَرَ فإنّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومَنْ كَفَرَ فإنَّ رَبي غَنيٌّ كَريمٌ »(١) .

عاشرا ـ امرأة ذكية :

يستقر عرش المملكة لدى سليمان عليه السلام ويأمر بإحداث بعض التغييرات في معالمه لتتم المفاجأة مقرونة بالسؤال عنه حين تصيبها الدهشة برؤيته بين يديها وقد تركته محروساً مصاناً في مملكتها البعيدة .

---

١ ـ سورة النمل الآية ٤٠ .

ويكون جواب الملكة غاية في المرونة والصدق والصحة فهي على الرغم مما أصاب العرش من تغييرات . لم تنكره أصلا . . ولم تؤكده إطلاقاً بل قالت (كأنه هو . .) .

« قالَ : نَكِّرُوا لهَا عَرْشها نَنْظُر أَتَهْتَدِي أَمْ تكُونَ مِنَ الذِينَ لا يهْتَدُونَ * فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ :أَهكَذَا عَرْشُكِ قالتْ : كأنَّهُ هُوَ وأُوتِينَا العِلمَ مِنْ قَبْلِها وكُنَّا مُسْلمينَ»(١)

حادى عشر ـ مفاجأة ثانيـة :

إن قصر سليمان يقوم قسم منه على أرضية من البلور فوق الماء ليظهر وكأنه ماء يجري وقد طلب من الملكة أن تدخل ماشية على تلك الأرضية فظنتها ماء يجري فكشفت عن ساقيها لتخوض متفادية بلل ثيابها – ولكنها أدركت من بعد ذلك أنه زجاج جاف فوق الماء فكان هذا مع إحضار عرشها وإرسال الكتاب إليها ورد هديتها كل ذلك أكد لها صدق سليمان في دعوته لله تعالى.فهذه أمور معجزات من الله تؤيد صدق دعوة سليمان للإسلام.

ثاني عشر ـ اسلام لله رب العالمين :

إن الهدف من عرض هذه المواقف النفسية في القرآن . أنها تهدف إلى تحقيق هـــدف نبيل – في بيـــان فساد عقيدة الملكة وقومها – وكيف أن سليمان سلك عدة سبل لدعوتها للإيمان ، وفي إقناعها بصدقه – وختاماً تعلن المرأة عن ظلمها لنفسها فيما سبق . وأنها الآن قد أسلمت لله رب العالمين .:

« قالتْ رَبِّ إني ظَلَمْتُ نَفْسي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُليمان لله رَبِّ العالمين »(٢) .

١ ـ سورة النمل الآية(٤١ـ٤٢). ٢ ـ سورة النمل الآية (٤٤) .

الفصـــل الثــامن

تأويل الرؤى فى القرآن

- لماذا ينــام الإنسان ؟
- حقائق نفسية علمية حول النوم .
- الأحـــلام .
- مدرسة التحليل النفسي والأحلام .
- (فرويد) في الميزان .
- النظرة العلمية للرؤى .
- نماذج قرآنيـــة .
- رؤيا يوسف عليه السلام .
- رؤيا صاحبي يوسف في السجن
- رؤيا ملك مصر .
- رؤيا إبراهيم عليه السلام .
- رؤيا البشارة لرسول الله عليه الصلاة والسلام .
- جدول الرموز وتأويلها .
- قراءات نبوية في الرؤى .

● لماذا ينـام الانســـان :

يقضي الإنسان ما لا يقل عن ربع حياته في المتوسط وهو نائم . . فما هو النوم ؟ . .

النوم عملية توقف نسبي في تفاعل حس الإنسان وحركته وإدراكه مع ما يحيط به من مختلف أنواع المؤثرات عموماً(١) والنوم ضرورة أساسية من ضرورات الحياة كالأكل والشراب . لأنه يقدم فترة زمنية مناسبة للجسم لترميم خلاياه المتهدمة . ولتجديد نشاطه . ومتابعة نموه التكويني المتوازن . فالطفل الوليد يكاد ينام أكثر ساعات يومه وصحوه للرضاعة تقريباً . أما الإنسان الراشد فتتراوح ساعات نومه بين (٤ — ١٠) ساعة يومياً . مع تناقص تدريجي مع تقدم العمر في فروق فردية بين إنسان وآخر .

فإذا منع الإنسان عن النوم وحرم منه لايام متواصلة فإن ذلك يؤدي إلى هلوسات بصرية ثم إلى سرحان وعدم التذكر والهزال ثم الهذيان الفكري مع انهيار جسمي وعقلي عام ينتهي بالموت .

تدل الدراسات النفسية العقلية وكذلك بحوث وظائف الأعضاء أن النوم ليس ظاهرة سلبية تتجلى في تناقص الحس والحركة والوعي الشعوري أو أنه مجرد مرحلة ترميمية لبعض الخلايا — ذلك أن العلماء اكتشفوا اليوم أن النوم ظاهرة إيجابية مرتبطة كل الارتباط بالحياة الواقعية وما تتضمنه من شعور وإدراك

---

١ ـ عكاشة : د. أحمد (التشريح الوظيفى النفسى) ص ٢٣٠ـ٢٤٠ .

وانفعال وسلوك ، لذا فإن دراستنا للنوم وما يكتنفه من أحلام تساعدنا على فهم غير قليل من عمليات اليقظة ، لذلك الإنسان .

وقد أشار القرآن الكريم إلى عدة حقائق علمية تتصل بالنوم .

فالنوم نعمة من الله لأنه استعادة لنشاط الحياة في ابتغاء فضل الله عملا :

« وَمِنْ آياتهِ مَنَامُكُم باللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغَاؤُكم مِنْ فَضْلِهِ إنَّ في ذَلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون »(١) .

والنوم راحة جسمية وخيره ما كان ليلا : في قوله تعالى :

« وَهوَ الذي جَعَلَ لكُم اللّيْلَ لِباساً والنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النّهارَ نُشُوراً »(٢) .

« وَخَلَقْناكُم أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمكُم سُباتاً »(٣) .

« وَجَعَلْنَا اللّيْلَ لِباساً * وَجَعَلْنَا النّهارَ مَعاشاً »(٤) .

● **حقائق نفسية علمية حول النوم :**

للنوم دراسات عضوية وظيفية واسعة ولكن الذي يعنينا في هذا البحث هو ما يتصل بالنوم من حقائق نفسية تكوينيةوأهمها :

أولا : في الحياة الجسمية تحدث بعض التغيرات الحيوية المهمة أثناء النوم مثل انخفاض كل من سرعة دقات القلب .

---

١ ــ سورة الروم (مكية) الاية ٢٣ .
٢ ــ سورة الفرقان (مكية) الاية ٤٧ .
٣ ــ سورة النبأ (مكية) الايتان٨ــ٩ .
٤ ــ سورة النبأ (مكية) الايتان١٠ــ١١ .

وضغط الدم وسرعة النبض وهذا مظهر عضوي للاسترخاء الجسمي والإدراكي والانفعالي العام أثناء فترة النوم .

ويقوم الجسم أثناء النوم على الرغم من كونه عميقاً ببعض التقلبات والحركات الخارجية للأطراف في سبيل حماية النائم وراحته كما يظل الجهاز العصبي اللاإرادي عاملا نشيطاً أثناء النوم ويزيد أيضاً جريان الدم في المخ أثناء النوم بالمقارنة مع اليقظة .

ثانياً : في الحياة النفسية استناداً لما تقدم ينقطع الإنسان عن التجاوب عموماً عما حوله من مؤثرات . ولكن تظل بعض الخلايا الحسية على درجات من الصلة في بعض الأحيان – كما تظل بعض الخلايا العصبية في المخ نشيطة إلى درجة ما ، وهذا ما يفسر لنا حدوث الأحلام وحركات عين النائم كما يحدث ما يسمى (بالتفكير اللاشعوري) الذي يساعد الإنسان على فهم أو حل المشكلات الفكرية والسلوكية أثناء النوم فيستيقظ فاهماً واعياً لتلك الأمور . . كما أن فترة النوم بين فترتي الدراسة والاستذكار كثيراً ما تساعد على تثبيت الأفكار وصقل عمليةالتعليم.

ثالثاً : ليس النوم بدرجة واحدة من الوجهة الصحية . فمنه ما هو صحي مفيد منعش عندما يكون عميقاً ومتواصلا وفي الليل . أما النوم المتقطع والسطحي والقليل فإنه لا يقدم للجسم راحته الضرورية في نشاطه الفكري والحركي .

رابعاً : لا يمثل النوم انقطاعاً إنسانياً كاملا عن المؤثرات المحيطة – فبعض الأحلام إنعكاس لمثيرات حول النائم مثل صوت جرس . أو إشعال ضوء كبير . أو طقطقة آلات ، أو ضجيج حركات صاخبة .

وكذلك فإن صلة النائم بما حوله قد تكون صلة انتقائية . فالأم حديثة الولادة على الرغم من أنها قد تنام نوماً عميقاً ولا تتأثر حينذاك بالأصوات المزعجة من حولها ولكنها تستيقظ من نومها مباشرة لأول صوت يصدره ابنها النائم إلى جوارها .

وكذلك حارس الطاحونة حين ينام هادئاً مع ضجيج آلاتها ما دام صوتها مستمراً فإذا توقف الضجيج هب من نومه مستيقظاً ليبحث السبب المزعج لانقطاع الضجيج وانقطاع نومه أيضاً .

● **الأحـــــلام :**

لقد لاحظ الإنسان منذ عهده بالحياة ظاهرة الأحلام وحاول أن يفهم ما يتصل بها ولا سيما خلال هذا القرن الأخير حين حاول علماء وظائف الأعضاء وعلماء النفس استخدام ما يسمى اليوم بمقياس الكهربائية ــ الدماغية
الذي يسجل التيارات الكهربائية الصادرة عن الدماغ حيث أمكن التعرف على وجود الحلم أثناء النوم بطريق وجود بعض التغيرات في مقياس الكهربائية الدماغية مع تسجيل حركات سريعة للعين تحت غطائها تدل على حدوث صور بصرية مع تسارع في التنفس والنبض أثناء فترة الحلم من النوم .

بيد أن ما توصل إليه أولئك العلماء لا يزال قليلا وبداية . . ولعل ذلك يرجع إلى صعوبة التجريب في هذا المجال فمثلا أن تسجيل نوم مجرب عليه واحد يتجاوز ميلا من الورق يجب أن يقرأ ويفسر بوصة بوصة(١) .

---

١ ــ عاقل : د. فاخر (أصول علم النفس وتطبيقاته) ص ٢٦٦ــ٢٧٦ .

وعلى الرغم من أن الأحلام حقيقة في حياة النائم ولها آثارها المباشرة وغير المباشرة على حياته وهو في اليقظة إلا أن دراسة الأحلام ومحاولة تفسيرها قد تجاذبتها آراء ونظريات إنسانية لا تزال في مستوى الفرضيات ومع ذلك تظل الأحلام النومية حقيقة في الحياة النفسية بحيث لا تخلو حياة الإنسان من الأحلام سواء تذكرها بعد اليقظة أم لا .

● مدرسة التحليل النفسي والأحـــلام :

لمدرسة التحليل النفسي التي دعى إليها فرويد وأتباعه أسساً عامة على الرغم ممـــا لحقها من تعديل في فترات زمنية متلاحقة . وأهم تلك الأسس التي تتصل بالأحلام ما يلي :

١ ــ للإنسان حياة شعورية مشاهدة . وهي تتأثر كلها بحياته اللاشعورية التي تتضمن رغباته ودوافعه المحرمة والمكبوتة والتي لم يتم إشباعها في الحياة الشعورية .

٢ ــ أحلام الإنسان تنطلق من حياته اللاشعورية ــ والحلم بأحداثه وأشخاصه وأشيائه يتضمن رموزاً لتلك الرغبات المحرمة المكبوتة في اللاشعور .

٣ ــ رموز الأحلام لا تكون صريحة بل في شكل مقنع يسمح لها الرقيب الذاتي بالتعبير الإشباعي بشكل غير صريح .

وتفسير تلك الرموز هو تأويل للأحلام وبالتالي فهم للحياة اللاشعورية في التشخيص والعلاج لحياة المرضى النفسيين .

٤ ــ يجعل فرويد رموز الأحلام تدور كلها حول الثلاثي الذي يلخص أفكاره (الجنسية الطفولية المكبوتة) وهي رغبات

جنسية محرمة سابقة لا يجيز المجتمع إشباعها في الشعور لضوابط الأخلاق والدين والأعراف فتظل في اللاشعور وتتحين فرص الأحلام للإشباع بأشكال مقنعة .

على الرغم من أن تلامذة فرويد من (آولر) أو (يونج) أو (هورني) أدخلوا رغبات (أنا) المتفوقة أو العدوانية لكنها جميعاً رغبات مادية جسدية ..

● فـرويد في الميـزان :

إن أفكار فرويد وأتباعه فيما يتعلق بالأحلام تمثل فترة تاريخية في النمو العلمي للدراسات النفسية . . فهي لا تمثل نهاية الطريق . ولإتمام الإنجاز العلمي فهي كما يلي :

١ ــ إن أهمية الحياة اللاشعورية المتعلقة بمرحلة الطفولة أهمية أكيدة في الحياة الشعورية للإنسان الراشد . . وهذه فكرة لها رصيد علمي مقبول .

٢ ــ إن تحديد مصدر الأحلام بالحياة اللاشعورية السابقة للإنسان فقط هو تقيد لا يقبله الفكر العلمي الذي لا يزال في بداية الطريق لدراسة النفس الإنسانية وسلوكها .

٣ ــ إن جعل الحياة اللاشعورية للطفولة الجنسية المحرمة هي المحور الذي تدور عليه الأحلام في رموزها وتأويلها هو ادعاء فرضي ليس له سند علمي .

٤ ــ إن الأحلام التي درسها فرويد هي أحلام مرضى عصبيين وأفراد شواذ ، فكيف يجوز علمياً تعميم نتائج تلك الحالات الشاذة والمنحرفة على الأصحاء الأسوياء ؟

وموجز القول فإن مدرسة فرويد في الأحلام هي في أحسن فروضها هي تفسير جانبي لبعض عوامل الرؤى ـ كما إنها تفسير مرحلي لفترة المرض النفسي فقط(١) .

● **النظـرية العلميـة للرؤى :**

إن الرؤى حقيقة قائمة في الحياة الإنسانية في فترات النوم . وهذه الحقيقة النفسية القائمة لا تستلزم صدق مضمون الأحلام أو عدم صدقها . كما لا تستلزم مقدرة الإنسان على فهم طبيعة الرؤي أو عدم مقدرته . . أو فهم محتوياتها أو عدم فهمه . .

إن الرؤى تتحرر من قيود المكان ومن قيود الزمان . .

فالتحرر المكاني يتجلى بالزمن الحاضر وما يجري في أمكنة متباعدة تسقط بينها الحواجز فالنائم وهو في مدينة (جدة) يرى في المنام أنه في مكة المكرمة أو مدينة (فاس) أو (بغداد) مع أهله ومعارفه . . أو مع أناس لا يعرفهم مثلا في مكان لا يدريه .

والتحرر الزماني يتجلى بالزمنين الماضي والمستقبل . في الماضي عما حدث وغدا طواه النسيان الشعوري ـ أو في المستقبل بطريق التنبؤ أو الترقب في سبيل الحذر مما يخشى أو الترجي للمأمول . .

فمن الرؤى ما هي انعكاس لحالات جسمية داخلية كالتخمة أو المغص حين يرى النائم نفسه في حرب أو خصام أو مرض أو هي انعكاس لمؤثرات خارجية بحتة . . مثل ضوء ساطع فيرى النائم نفسه في النهار المشرق . أو قريباً من حريق . .

---

١ ـ الهاشمي : د. عبد الحميد (فرويد في الميـزان) بحث في مجلـة

وتلك هي أضغاث أحلام أي أخلاط من انعكاسات مضطربة لا تتضمن إشارة هادفة إلى معنى جدي مفيد في الحياة النفسية الداخلية .

ومن الرؤى ما يعكس الحياة الواقعية بكل ما فيها من رغبات متصارعة ودوافع متنافسة فهي نوع من حديث النفس أثناء فترة النوم ، فالفقير وهو يتوق للغنى جاهداً يرى نفسه وقد أثرى بين عشية وضحاها .

والغني الذي يخشى الفقر يرى نفسه وقد أفلس في تجارته . .

والمريض الذي أعياه المرض يرى نفسه كامل الصحة وموفور القوة وهكذا .

ومن الرؤى ما يحمل في طياته عنصر التنبؤ عن المستقبل القادم حين تسقط الرؤى حواجز الزمن كما سنرى ذلك في أمثلة قادمة .

● **نماذج قرآنية :**

إن القرآن الكريم قد استخدم كلمة (الرؤى) لما يراه النائم ويحتمل التأويل بينما استخدم (أضغاث أحلام) لما يراه النائم من أخلاط في تصورات لا تحتمل تعبيراً . وقد جمع هذين النوعين باسم (أحاديث) وقد ورد هذا في سورة (يوسف) ثلاث مرات كما يلي :

« وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ » (١)

---

١ - سورة يوسف الآية ٦ .

« وكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ » . (١)

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ » (٢)

وفي إطلاق (الأحاديث) على الرؤى والأحلام أكثر من فائدة . . ذلك أن (الحديث) إنما يكون بين طرفين . .

والطرفان قد يكون أحدهما الله تعالى . . وهذه رؤيا البشرى.. أو التنبؤ بالمستقبل وهذه خاصية لبعض الناس الذين لهم أهلية واستعداد .

والطرفان قد يكون أحدهما الهوى أو الشيطان . وهذه رؤى الشر والكيد والفساد . . كما قد يكون الحديث بين الإنسان ونفسه وما يجري بينهما من تعارض الرغبات وتناقض الدوافع كما قد يكون الحديث بين الإنسان جسماً وما حوله من مؤثرات البيئة . . وبهذا يقدم القرآن تصوراً واسعاً لظواهر أنواع الرؤى والأحلام .

ولقد أورد القرآن الكريم عدة رؤى منها رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة (الأنفال) . ورؤيا إبراهيم عليه السلام في سورة (الصافات) . غير أن سورة (يوسف) عليه السلام تتضمن ثلاث رؤى تحمل معالم (الرموز) وعملية (التأويل) وكلها تدور وتتعلق بشخصية يوسف في مختلف مراحل عمره . وسنورد عرضاً موجزاً لتلك الرؤى .

---

١ ـ سورة يوسف الآية ٢١ .
٢ ـ سورة يوسف الآية ١٠١ .

الرؤيـا الأولى :

إنها رؤيا يوسف (عليه السلام) حين يرى في منامه وهو أنذاك غلام ناشيء أحد عشر كوكباً والشمس والقمر وهي متمثلة بأعمال الناس العقلاء وهم يحنون رؤوسهم إليه تعظيماً بالسجود ويقص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب عليه السلام الذي يدرك بنور البصيرة أن هذه الرؤيا تشير إلى ما ينتظر ابنه يوسف من مركز عال وشأن عظيم في حياته . ولهذا ينصحه ألا يقص رؤياه على اخوته لكي لا يستشعر الإخوة بمزيد من الغيرة نحوه وهو الأخ الصغير غير الشقيق لهم .

فالله تعالى قد قدر أنه يختار يوسف من أبناء يعقوب ليكون المجتبى لإتمام النعمة عليه وتعليمه تأويل الأحاديث في صفاء الفهم والبصيرة . وشفافية الحس والبديهة — وكل ذلك إلهام من الله العليم . وهذا ما كان سائداً في هذا العصر وتلك إحدى معجزات يوسف النبي عليه السلام .

« يا أَبَتِ إنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمسَ والقَمر رَأَيْتُهُم لي سَاجِدِين » (١)

والتأويل وقد ورد في أواخر السورة وهو :

« وَرَفَعَ أبَوَيْهِ على العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ : يا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً » . (٢)

---

١ — سورة يوسف الآية ٤ .
٢ — سورة يوسف الآية ١٠٠ .

الرؤيا الثانية :

إنها رؤيا رجلين من عامة الشعب سجينين وكان معهما يوسف ذلك الفتى البريءُ الذي اتهمته امرأة العزيز بالفحشاء وحين لم يستجب ولاكتها الألسن أودعته السجن ظلماً . . بيد أن السجن كان فترة لمعرفة المساجين حقيقة يوسف في صلاح سلوكه واستقامة عقيدته وحسن معاملته . . مما جعله قريباً إلى من جاوره في السجن ومنهم فتيان . رأى كل واحد منهما رؤيا فيطلبان من يوسف تأويلها . . وهنا يسلك يوسف معهما طريق المربي الصادق العليم كما يلي :

(أ) يذكر لهما استعداده لتأويل الرؤيا . . وذلك لاطمئنان قلوبهما استجابة لطلبهما .

(ب) يؤكد لهما مقدرته على ذلك بمقدرته على معرفة نوع الطعام قبل أن يأتيهما وإن ذلك من تعليم الله له .

(ج) ينتهز هذه الفرصة للدعوة إلى الله تعالى . . وأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله فهي دعوة لله بالحكمة دون مواجهة للذين لا يؤمنون بتحديد أسمائهم .

(د) مناقشة علمية فطرية في وحدانية الله وأهليته للعبادة وحده وذلك هو الدين القيم .

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ؟ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ » (١)

---

١ ــ سورة يوسف الآية ٣٩ .

(هـ) وختاماً يكون التأويل : أحد الفتيين – يخرج سليماً ويعود لمجلس الملك يسقيه خمرا ، والآخر يحكم عليه بالصلب موتاً . . ويوسف لم يعين من هو صاحب النهاية القاسية ومن هو صاحب البشرى كما يلي :

سورة يوسف (٣٦ – ٤١) .

« قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا . . » (١)

« أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرا » (٢)

« وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » (٣)

« . . . وَأَمَّا الآخَرَ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » (٤)

الرؤيا الثالثة :

إنها رؤيا ملك مصر وقد أهمته وطلب من حاشيته تأويلها .

ولقد أجاب من حوله بأن هذه الرؤيا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

وهذا القول ممن حوله إما عن جهل صادق بتعبير الأحلام . أو أنهم عرفوا ولكنهم خافوا من ذكر الحقيقة القادمة لأنها قاسية .

---

١ – سورة يوسف الآية ٣٦ .
٢ – سورة يوسف الآية ٤١ .
٣ – سورة يوسف الآية ٣٦ .
٤ – سورة يوسف الآية ٤١ .

يسمع كل هذا أحد صاحبي يوسف في السجن وهو الذي نجا فيتذكر يوسف السجين ويتم سؤال يوسف الصديق عن الرؤيا :

(إفتنا في سبع بقرات سمان) ويكون تأويل يوسف مزيجاً حكيماً من التعبير — والإرشاد التخطيطي لمواجهة الوقائع — مع مزيد مما علمه الله من ذلك أيضاً كما يلي :

● **الرؤيـــا :**

« وَقَالَ المَلِكُ إنّي أرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِسات يا أيُّها المَلأُ أفْتُوني في رُؤيَايَ إنْ كُنْتُم لِلرُّؤيا تَعْبُرُون * قَالُوا أضْغَاثُ أحْلام وَمَا نَحْنُ بِتَأويلِ الأحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادَّكَرَ بعْدَ أُمّةٍ أنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأويلِهِ فَأرْسِلُون * يُوسُفُ أيُّها الصِّدِّيق أفْتِنَا في سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسات لعلّي أرْجِعُ إلى النّاسِ لَعَلّهُم يَعْلَمُون » (١)

● **التـــأويل :**

« قَالَ تَزْرَعُون سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً » (٢)

---

١ — سورة يوسف الآية ٤٢ـ٤٦ .
٢ — سورة يوسف الآية ٤٧ .

وهي سنوات الخصب السبع المتوالية ورمزها البقرات السبع السمان..

(**فَما حَصَدْتُمْ فذَروهُ في سُنْبله**) ادخروا حصادكم في السنابل حفظاً من السوس وغيره من عواملَ الفساد وحفظاً لها للسنوات السبع المجدبة القادمة .

(**إلا قَليلاً مِمَّا تَأْكُلونَ**) وهذا جردوه من سنابله . .

(**ثُمَّ يأْتي مِنْ بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شدادٌ**) لا خصب ولا زراعة .

(**يأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُم لهُنَّ**) . . تستهلكون فيها ما لديكم من ادخار محفوظ .

(**إلاّ قَليلاً مما تُحْصِنُون**) وهذا ادخار آخر ذكي لبقية باقية من المخزون تفيد الناس في زراعتهم الجديدة بعد السنوات العجاف السبع .

« **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** » (١)

وهذه بشارة إضافية من يوسف للناس فبعد السنوات الشداد يأتي عام فيه الخصب والرخاء (٢) .

● **الرؤيـــا الرابعـــة :**

تلك هي رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تتضمنه من تأييد وبشرى لتحقيق النصر وكانت الأحداث قبل الرؤيا ومعها وما بعدها كما يلي :

---

١ ـ سورة يوسف الآية (٤٩) .

٢ ـ باجودة : د. حسن باجودة (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام) ص ٤٠٦ـ٤٢١ .

١ ـ انه الاعداد ليوم (بدر) في السنة الثانية للهجرة إلى المدينة المنورة فهي يوم الفرقان بين الحق والباطل باعتبارها أولى معارك الإسلام تأكيداً لضرورة الإعداد وأهمية الجهاد لتحرير الإنسان من عبادة الإنسان وغيره إلى عبادة الله الواحد .

٢ ـ خرج المؤمنون من المدينة يقتفون آثار قافلة قريش بعد أن سلبت قريش أموال المهاجرين . فكان خروج المؤمنين دون أهبة لقتال جدي . بينما جاء المشركون إلى المدينة يريدون حماية القافلة ويريدون القتال أيضاً وقد أعدوا له .

٣ ـ وعلى غير موعد كان اللقاء بين المؤمنين والمشركين حيث المؤمنون نزلوا بضفة الوادي من جهة المدينة والمشركون بالضفة الأخرى المقابلة وبينهما ربوة فاصلة أما القافلة فقد هربت بعيدة نحو الساحل .

٤ ـ يريد الله تعالى تثبيت المؤمنين للجهاد على الرغم من قلة عددهم واستعدادهم إذ كانوا حوالي ثلاثمائة بينما المشركون وقد أعدوا أنفسهم للقتال كان عددهم قريباً من الألف .

فكانت رؤيا رسول الله تثبيتاً من الله له وللمؤمنين ورفعاً لروحهم الجهادية الصادقة .

٥ ـ ونص رؤيا رسول الله :

« إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » (١)

---

١ ـ سورة الانفال الآية ٤٣ .

انها الرؤيا في تقليل عدد المشركين . مع بيان الحكمة حين بشر الرسول أصحابه بها فاستبشر بنصر الله على الرغم من أنهم خرجوا من غير استعداد لقتال ، ولولا هذه الرؤيا النبوية المبشرة لاختلف أمر المؤمنين بين من يريد المواجهة ومن لا يريد والرؤيا صادقة في دلالتها لأن العدد المادي ليس كل شيء في حساب النصر.

٦ – وتثمر البشارة ويبدأ اللقاء وتكون المشاهدة الواقعية في اليقظة تأكيداً للرؤيا النبوية فيرى المؤمنون أن المشركين قلة تشجيعاً للمواجهة كما أن المشركين يرون المؤمنين قلة استدراجاً للقتال . وهكذا كانت الرؤيا البصرية اليقظة مؤيدة للرؤيا المنامية . وكان النصر للمؤمنين .

قال تعالى :

« وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إذ التَقَيْتُم في أَعْيُنِكُم قَلِيلاً ويُقَلِّلُكُم في أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمُور » (١)

٧ – ثم يكون التوجيه النفسي في تربية الإنسان المسلم بمنهج واقعي عملي للتدريب على عوامل النصر – من صلة بالله تعالى وإعداد للجهاد – وطاعة القيادة ووحدة الصف والمثابرة الصابرة على ذلك وهذا في الآيتين التاليتين مباشرة :

« يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُم فِئَةً فاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُم تُفْلِحُون * وأَطِيعُوا اللهَ

---

١ – سورة الانفال الآية ٤٤ .

وَرَسُولَهُ ولا تَنَازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُم واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين » (١)

● الرؤيا الخامسة :

إنها رؤيا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مثال الاستسلام واليقين وقد تقدم به العمر إلى الشيخوخة وهو لا يزال وحيداً لا ذرية له فدعا :

« رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالِحين » « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيم » . (٢)

فكان له إسماعيل ابناً فرح بمقدمه — ثم كان له أن يتركه مع أمه في واد غير ذي زرع في مكة المكرمة سنوات . فلما أصبح إسماعيل صبياً يافعاً يسعى مع أبيه الشيخ يملأ عليه الحياة سعادة ، انه غلام حليم وحيد يأنس به . ثم تكون الرؤيا أن إبراهيم يرى في منامه انه يذبح ابنه ويكون تسلسل الأحداث كما يلي :

١ — إبراهيم عليه السلام صادق في رؤياه وقد أدرك أن ذلك إشارة من الله تعالى بالتضحية بابنه العزيز .

٢ — يتقدم الوالد الشيخ لابنه الوحيد العزيز ليقول بكل ثبات واطمئنان :

« قال : يا بُنَيَّ إنِّي أرَى في المَنَامِ أنِّي أذْبَحُكَ فانْظُرْ ماذا تَرَى . . . ؟ » (٣)

---

١ — سورة الانفال الآيتان ٤٥-٤٦ .
٢ — سورة الصافات الآيتان ١٠٠-١٠١ .
٣ — سورة الصافات الآية ١٠٢ .

٣ – يسمو الولد الغلام الحليم إلى مستوى الاطمئنان والطاعة الذي يعيشه والده الشيخ :

« قال : يا أبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ستَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » . (١)

انه الغلام الحليم الأديب يمثل الطاعة المطمئنة لأبيه دون ادعاء أو غرور انه يعين والده الشيخ على التضحية .

٤ – يستسلم كل من الوالد الشيخ لتنفيذ الذبح بيديه . والولد الوحيد لتقبل الذبح لنفسه امتثالا لإشارة الله تعالى .

وهذا هو الاختبار الصعب في تعاون كل من الأبوة والنبوة على التضحية الصادقة :

« فلَمّا أسْلَمَا وتَلّه للْجَبِين »(٢)

٥ – لقد تم الاختبار وانتهى الابتلاء وقد تحققت الغاية في الامتثال . والله لا يريد عذاب عباده ولن ينال دماءهم وأجسادهم وقد فاز كل من الوالد وولده فكانت الفدية بذبح عظيم . فالوالد ضحى بأعز ما لديه والولد ضحى بنفسه .

« وناديْنَاهُ أنْ يَا إبْراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إنّا كَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِين * إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيم » . (٣)

وكانت سنة الأضحية يوم النحر العاشر من ذي الحجة تذكيراً للأمة المسلمة بمثال الطاعة والاستسلام لله الذي قدمه إبراهيم عليه السلام .

---

١ – سورة الصافات الآية ١٠٢ . ٢ – سورة الصافات الآية ١٠٣ .
٣ – سورة الصافات الآية ١٠٤–١٠٧ .

جدول بعض الرموز وتأويليها

ان التأويل معرفة المال والمقصود وفي ضوء ما تقدم من نماذج نقدم الجدول التالي لرموز الرؤى التي وردت في سورة يوسف وما يتصل بها من تعبير تأويلي :

الرمز ورقم الآية		التأويل ورقم الآية	
(أحد عشر كوكبا)	(٤)	أحد عشر أخا	(١٠٠)
الشمس والقمر	(٤)	الوالدان	(١٠٠)
السجود	(٤)	الاحترام والتقدير	(١٠٠)
أعصر خمرا	(٣٦)	يعود لسقيا الملك في مجلسه	(٤١)
أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه	(٣٦)	الصلب وأكل الطير من رأسه	(٤١)
سبع بقرات سمان	(٤٣)	سبع سنوات يزداد فيها الإنتاج الحيواني	(٤٧)
عجاف	(٤٣)	ليس فيها إنتاج	(٤٨)
يأكلهن	(٤٣)	يستهلكن	(٤٨)
سبع سنبلات خضر	(٤٣)	سبع سنوات يزدهر فيها القمح والنبات	(٤٧)
سبع سنبلات يابسات	(٤٣)	سبع سنوات فيها الجدب والقحط	(٤٨)

● **رسول الله (ص) يرى رؤيا ويقوم بتأويلها :**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع . فأتينا برطب من رطب ابن طاب . فأولت الرفعة لنا في الدنيا . والعاقبة في الآخرة . وأن ديننا قد طاب) . (١)

● **المسلم لا يخضع حياته لمؤثرات الرؤيا ·· فان كانت خيرا حمد الله ·· وا نكانت غير ذلك لم يذكرها فانها لاتضر :**

(عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها . وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد . فإنها لا تضر) . (٢)

● **رؤيا المؤمن فيها شفافية صادقة :**

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) . (٣)

---

١ ـ مختصر صحيح مسلم ـ للمندرى ـ تحقيق الالبانى رقم الحديث (١٥١٢) ·

٢ ـ مختصر البخارى الجامع الصغير ـ الزبيدى ج ٢ ص (١٥٢)

٣ ـ مختصر صحيح مسلم للمنذرى ـ تحقيق الألباني رقم الحـــديث (١٥١٩) ·

المصادر والمراجع

١ ـ البخاري : أبو عبالله محمد بن إسماعيل (الجامع الصحيح) ـ مختصره التجريد الصريح (لأبي العباس الزبيدي ـ دار المعرفة ـ بيروت . جزءان : (د . ت) .

٢ ـ باجوده : د. حسن (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام) دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

٣ ـ بيصار : د. محمد (العقيدة والأخلاق) وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع . دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ط٤ ١٩٧٣م .

٤ ـ البار : د. محمد علي (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) الدار السعودية للنشر جدة ط٢ ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

٥ ـ سعيد : جودت (العمل قدرة وإرادة) دار الثقافة للجميع : دمشق ط١ ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

٦ ـ الطنطاوي: علي (تعريف عام بدين الإسلام) ط٢ (د. ن) (د. ت) .

٧ ـ العقاد : عباس محمود (موسوعة العقاد الإسلامية) المجلد الرابع (المرأة في القرآن) و (الإنسان في القرآن) دار الكتاب العربي . بيروت ١٣٩٠هـ ١٩٧١م .

٨ ـ عاقل : د. فاخر (أصول علم النفس وتطبيقاته) ط٤ دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٩م .

٩ ـ عكاشه : د. أحمد (التشريح الوظيفي النفسي) ط٣ ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٧٥م .

١٠ـ الغزالي : محمد (نظرات في القرآن) دار الكتب الحديثة ط٥ القاهرة (د . ت) .

١١ـ الغزالي : الإمام أبو حامد (أحياء علوم الدين) خمسة مجلدات دار المعرفة . بيروت (د . ت) .

١٢- قطب : سيد (في ظلال القرآن) ستة مجلدات : دار الشروق - بيروت والقاهرة ط٧ (١٩٧٨م) .

١٣- قطب : محمد (دراسات في النفس الإنسانية (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م (د . ن) (د . م) .

١٤- قطب : محمد (دراسات قرآنية) دار الشروق : بيروت والقاهرة ط٢ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٥- اريل : الكسمس (الإنسان ذلك المجهول) تعريب شفيق أسعد فريد . مؤسسة المعارف . بيروت ط٣ ١٩٨٠م .

١٦- مسلم : الإمام أبو الحسن بن الحجاج (مختصر صحيح مسلم) للحافظ المنذري . تحقيق الألباني - ط٢ دار العربية - ١٣٩٣هـ . المكتب الإسلامي .

١٧- المبارك : محمد (نظام الإسلام العقيدة والعبادة) دار الفكر . بيروت ط١ - ١٩٦٨م - ١٣٨٨هـ .

١٨- محمود : د. مصطفى (من أسرار القرآن) مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة ٧٦ - ١٩٧٧م .

١٩- الهاشمي : د. عبد الحميد (علم النفس التكويني) ط٤ جدة دار المجمع العلمي ١٣٩٩هـ ٧٩م .

٢٠- الهاشمي : د. عبد الحميد (الفروق الفردية) ط١ دار التربية - دمشق (د . ت) .

٢١- الهاشمي : د. عبد الحميد (الرسول العربي المربي) ط١ دار الثقافة للجميع . دمشق ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٢٢ــ الهاشمي : د. عبد الحميد (فرويد في الميزان) مجلة جامعة الملك عبد العزيز . العدد الأول ص ٣٨١ ــ ٤٠٥ .

٢٣ــ الهاشمي : د. عبد الحميد (المخدرات وأثرها في الحياة النفسية للإنسان) مجلة كلية التربية ــ مكة المكرمة السنة الثانية ــ العدد الثاني ١٣٩٦هـ ــ ١٩٧٦م . ص (١٥٨ ــ ١٧٧) .

٢٤ــ مختصر صحيح مسلم ــ للمنذري ــ تحقيق الألباني ، رقم الحديث (١٥١٢) .

٢٥ــ مختصر التجاري الجامع الصغير ــ الزبيدي ج ٢ ص (١٥٢) .

٢٦ــ مختصر صحيح مسلم للمنذري ــ تحقيق الألبانى ، رقم الحديث (١٥١٩) .

(الفهرست)

ـ المقـــــــدمة ـ

الفصل الأول ـ تمهيد أساسي :

الفصل الثاني ـ التكوين النفسي للانسان في القرآن :

الموضـــوع — الصفحة

الفصل الثالث ـ شخصية الانسان في القرآن :

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

صدر من هذه السلسلة

١ ـ تاملات فى سورة الفاتحة/للدكتور حسن باجودة·

٢ ـ الجهاد فى الاسلام مراتبه ومطالبه / للاستاذ احمد جمال ·

٣ ـ الرسول (ص) فى كتابات المستشرقين ··/ للاستاذ نذير حمدان ·

٤ ـ الاسلام الفاتح / للدكتور حسين مؤنس ·

٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الاسلامى / للدكتور حسان محمد حسان ·

٦ ـ السيرة النبوية فى القرآن الكريم / للدكتور عبد الصبور مرزوق ·

٧ ـ التخطيط للدعوة الاسلامية / للدكتور على محمد جريشة ·

٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الاسلامية / للدكتور احمد السيد دراج ·

٩ ـ التوعية الشاملة فى الحج/للاستاذ عبدالله بوقس ·

١٠ ـ الفقه الاسلامى افاقه وتطوره / للدكتور عباس حسنى محمد